شوقي أبو خليل

الهجرة

حدث غيّر مجرى التاريخ

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم



شوقي أبو خليل

الهجرة

حدث غير مجرى التاريخ

دار الفكر

تصوير ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م
ط ١ ١٩٨٠ م

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

تصدير

★ « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله ، واولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم »

« التوبة : ٢٠ و ٢٢ »

بسم الله القائل في محكم التنزيل : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آوَوا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا[1] .. » ، وله الحمد سبحانه وتعالى .

وصلى الله على سيدنا محمد بن عبد الله ، القائل : « من كانت هجرته إلى

(١) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ٧٢ .

الله عز وجل فهجرته إلى ما هاجر إليه ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ... فهجرته إلى ما هاجر إليه » ، وبعد ..

يودّع العالم الإسلامي سنة هجرية ويستقبل سنة هجرية جديدة باحتفالات كبيرة لها رونقها الخاص لسببين اثنين :

فسنة « ١٤٠٠ للهجرة » سنة هجرية جديدة أولاً ، والأهم ثانياً : هو وداع القرن الرابع عشر الهجري وحلول القرن الخامس عشر الهجري .

ولمطلع أيّ قرن هجري معنى خاصّ ، فرسول الله ﷺ يقول : « إنّ اللهَ يبعثُ لهذه الأمّةِ على رَأسِ كُلّ مائة سنة من يُجَدّدُ لها دينها[1] » ، ومن هنا جاء البِشْرُ والتفاؤل عند المسلمين ، مع مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، وجاءت الاحتفالات لتناسب جلال الذكرى ، وعظيم البشرى التي زَفّها إلينا رسول الله ﷺ ، مع مطلع كل قرن .

إنها الهجرة النبوية الشريفة في عامها الأربعمائة بعد الألف ، نستقبلها بذكريات وعبر ، وروحانية خاصة ، وأمل عريض في التجديد .

إنها الهجرة ... مبدأ تأريخ هذه الأمة المسلمة ، التي ارتضاها الصحابة الكرام ، واختاروها ممّا سواها من أحداث هامة عظيمة .

ففي السّنَةِ الثالثة من خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2] ، جمع الصحابة السابقين الأولين ، وقال لهم : إن الأموال قد كثرت ،

---

(١) حديث شريف صحيح ، اتفق البخاري ومسلم على الاحتجاج به ، قال المناوي في فتح القدير : اخرجه ابو داود في الملاحم ، والحاكم في الفتن ، والبيهقي في كتاب المعرفة عن ابي هريرة ، وقال الزين العراقي وغيره : سنده صحيح .

(٢) وقيل إن التاريخ الهجري وضع سنة ١٧ هـ ، فإن صح القول فيكون وضع التاريخ الهجري في السنة الرابعة من خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه ، وسبب وضعه بالاضافة الى ما سبق اعلاه ، انهم كانوا يسمون كل سنة بحادثة وقعت فيها ، فساله بعض الصحابة في تغيير ذلك لصعوبته على مر السنين ، كما كتب ابو موسى الأشعري لعمر رضي الله عنهما : إنه يأتينا من امير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ ، ولا ندري بأيها نعمل .

وما قسمنا منها غير موقت ــ أي غير محدد بتاريخ ينضبط به ــ فكيف التوصّل إلى ما يضبط ذلك ؟ لقد رُفع إليّ صكٌ موعده شعبان ، فلا أدْري أي شعبان هو ؟! آلذي مضى ؟ أمْ الذي نحن فيه ؟ أمْ الآتي ؟ ضعوا للناس شيئاً يَعْرِفُون به •

ناقش الصحابة الأمر ، وتداولوا في هذه المسألة المهمّة ، فمن قائل : اكتبوا على تأريخ الروم ، وقائل : اكتبوا على تأريخ الفرس ، فأبى عمر رضي الله عنه إلاّ أن يجعل تأريخ الإسلام متميّزاً ، وإشارة الى حادث اسلامي كبير •

فأشار بعضهم بأن يجعلوه مولد الرسول الكريم ﷺ ، وأشار بعضهم بأن يجعلوه وفاته ، وأشار علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه بجعله خروج النبي ﷺ من أرض المشركين ، أي يوم هجرته من مكة إلى المدينة ، فراقت الفكرة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولسائر الصحابة ، لما حققته الهجرة من انتصار الإسلام وانتشاره ، فاتفقوا على أن يكون مبتدأ التأريخ الإسلامي هو وقت الهجرة ، ولهذا سُمّي التاريخ الهجري •

ولما كانت الهجرة قد حدثت في ربيع الأول ، فإن آراء الصحابة تعدّدت حول الشهر الذي سَيُعتبر بداية السنة الهجرية ، وانتهت آراؤهم إلى الموافقة على رأْيٍ عرضه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، هو أن يكون المحرّم مبدأ للتاريخ الإسلامي ، لأن المحرّم هو أول السنة العربية في الجاهلية •

وهكذا •• صار أول المحرّم أول السنة الهجرية الأولى ، ويوافق ذلك للسادس عشر من يولية « تموز » سنة ٦٢٢ م ، وظل التأريخ الهجري بشهوره القمريّة قائماً إلى اليوم ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[1] •

ومن أوضح الأدلة على أن الهجرة ــ التي نستقبلها ونحتفل بذكراها

---

(١) راجع « الوعي الاسلامي » العدد : ١٢١ ، غرة المحرم ١٣٩٥ هـ ، مقال الشيخ عبد الله كنون ، ص : ٢٦ ، والأستاذ عبد الله الكبير ، ص : ٥٢ ، والدكتور عماد الدين خليل ، ص : ١٢ •

الأربعمائة بعد الألف ــ حدث عظيم في حياة الإسلام ، أن الصحابة رضي الله عنهم جعلوها مبدأ التأريخ ، فلم يؤرخوا بمولده ﷺ ، ولا بمبعثه ولا بغزوة بــدر الكبرى التي سجلت أول انتصار للاسلام على الشرك ، ولا بفتح مكة الذي طهّر البيت الحرام من عبادة الأصنام ورجس الأوثان ، ورفع راية التوحيــد على جزيرة العرب ، فأصبحت مناراً يهتدي به العالم في ظلمات الجهل والاشراك ، ولا بوفاته ﷺ .

إن كل هذه الأحداث تصلح لأن تكون مبــدأ للتأريخ الإسلامي ، لولا ما يقترن بكل منها من معنى يتضاءل أمام ما أدت إليه الهجرة من نتائج لانتشار الدعــوة .

فالميلاد وإن كان هو مبدأ انبثاق النور المحمدي ، إلاّ أنّه ربما صرف الناس إلى الاهتمام بذات الشخص ، والإسلام أتى حرباً على هذا الاهتمام ، فإنه قاد النصارى إلى تأليه المسيح عليه السلام .

والبعثــة في الحقيقة أول مظهر تجلّت فيه عنايــة الله لهداية الخلق من جديد ، بعد أن انحرفوا عن الصراط المستقيم ، وما أتاهم به الرّسُل السابقون من شرع ودين . ولكن أثرها لم يظهر ظهوراً بيّناً ، ولم يتحقّق المراد منها إلا بعد الهجرة ، وقد ذاق المسلمون في أعقابها الأمرّين ، وهاجروا فراراً بدينهم إلى الحبشة ، وكانت الأعوام التي تلتها فترة امتحان شديد لهم ، وللنبي نفســه عليه الصلاة والسلام .

كذلك معركة بدر الكبرى وفتح مكة ، فإنهما معركتان هامّتان أدال الله عز وجل بهما للمسلمين من عدوّهم ، وأعقبهم نصراً وتمكيناً ، وإننا إذا نظرنا الى الأمر بعين الواقع ، نجد أنّهما ثمرتان من ثمار الهجرة وخيرها وبركتها .

أما وفاته ﷺ ، فلم يقل بها أحَد" .. لما ينال المسلمين من الحزن عليه ، وتجدّده عند كتابة التأريخ بهذه المناسبة المؤلمة .

فالهجرة حدث غير مجرى التاريخ ، إنها المنطلق العملي ، والموقف الحاسم في تاريخ الإسلام ، وكل ما تحقّق بعدهـا من منجزات ، وتتابع من نجاحات وانتصارات ، محسوب عليها ، وراجع إليها •

إنها مرحلة انتقال من أرض حُجِبَت عنها أنوارُ النبوّة ، وغابت عنهـا شمس الهداية والمعرفة ، فحسبوا الشرك ديناً ، وسفك الدماء شجاعة ، وانتهاك الحرمات اقداماً ، ووأد البنات عفافاً وشرفاً ، وخُيِّل إليهم أن هذا هو السؤدد والشرف والرفعة والكمال ، ومن لم يسلك طريقهم اجمعوا على محاربته ، والكيد له ، حتى يخـوض باطلهم ، ويمشي في ضـلالهم[1] •• إلى أرض سطع بهـا نور الإسلام ، وفتحت أبواب الخير عندها ، فكان حادث الهجرة فرقاً بين الضعف والقوة ، والذل والعز ، والحق والباطل ، والخير والشر ، وكان فيها هدايـة الناس ، وسعادة البشر ، تغيَّر له وجه الزمان ، وانقلبت الأوضاع ، وتجلت فيه قوة العزيمة ، وكمال البطولة ، وصدق الارادة ، وغاية التضحية والايثار كأثر من آثار الإيمان الحق الصادق •

فالهجرة النبوية الشريفة ، المتنفّس السليم ، والانطلاقة الرائدة ، والدافع المتين إلى البذل والعطاء والتضحية والفداء •

إنها الحدث العظيم الضخم ، الذي دلّ على الإرادة الصلبة ، وعلى نتائج الصبر والثبات الطيبة •

إنها الحد الفاصل بين الباطل وطغيانه وظلمه وتجبّره ، وبين الحق وعدالته وسلامه وسماحته •

إنها الهجرة النبوية الشريفة •• التضحية الكبيرة مـن النبي ﷺ ومـن المهاجرين ، عندما تركوا الأرض والمال والأهل في سبيل العقيدة وحريتهـا ، والدفاع عنها ، وقد قوبلت بتضحية صادقة من الأنصار ، لا مثيل لها في تاريخ الانسانية •

---

(١) من « عظمة محمد » للشيخ عبد الغني حمادة « بتصرف » •

فالهجرة .. قيام الدولة العربية الاسلامية على أسس راسخة سليمة ، وتهيئة الظروف لبقائها واستمراريتها ، ورسمت للحياة العربية وجهاً مسلماً جديداً في كل شيء . وكانت بداية الفتوح العربية الإسلامية العالمية . فانهارت دولة الروم ودولة الفرس .

إن جيش الجيل المسلم الذي تربى في مكة قبل الهجرة ، ونظم شؤون دولته بعد الهجرة ، فتح نصف العالم في نصف قرن ، ووصل مُحَرِّراً مُعَلِّماً داعياً لأسمى مبادىء عرفتها الإنسانية حدودَ الصين شرقاً ، وأعماق منغوليا وسيبريا شمالاً ، وضواحي باريز غرباً ، وأعماق القارة الافريقية جنوباً .

إنه الإسلام – الدين الذي ارتضاه الله لعباده – ، الدين الذي ثبتت أركانه منذ الهجرة ، وما يزال إلى يومنا هذا يشغل العالم أجمع من أمريكا حتى اليابان، مروراً بأوربة وانتهاءً بجزر ڤيجي في شرق استرالية ، أينما اتجهت وجدت مركزاً إسلامياً ، وأتباعاً جدداً ، لصاحب ذكرى الهجرة ، من أبناء الدول الأجنبية.

إنه القرن الخامس عشر الهجري .. الذي نأمل أن نرى في سِنِيِّه الأولى من يجدد للأمة أمر دينها ، إنها بشرى رسول الله ﷺ . وما هي إلا عشرون سنة من عمر التجديد وينتهي القرنُ العشرون للميلاد ، ليبدأ قرنٌ ميلادي جديد ، وعندها سيكون الإسلام شغل العالم الشاغل ، وتكون أوربة قد وجدت ضالتها،وانتهت من أزمات شعوبها النفسية،ومن فراغها الروحي باعتناقها الإسلام .

ونحن مشاركة منا بحلول القرن الهجري الجديد ، نقدم هذا الكتاب عن الهجرة ، أسبابها ، وأحداثها ، ونتائجها ، وحَظِّنا منها اليوم . تتبعه بكتب أخرى عن غزوات المصطفى ﷺ ، كأجزاء متمِّمة لسلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام » ، وسيكون الجزء الثاني عشر من هذه السلسلة عن « غزوة بدر الكبرى » إن شاء الله ، آملين من الله التوفيق والعون ، عليه توكلنا ، ففي سبيله نعمل ، ولرضاه نسعى ، إنه من وراء القصد .

الشام في ٢٤ شوال ١٣٩٩ هـ
الموافق : ١٥ أيلول ١٩٧٩ م

شوقي أبو خليل

الهجرة إلى الحبشة

« فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » .

« قرآن كريم »

بقيت الدعوة الإسلامية في مكة سرية ثلاث سنوات ، أسلم خلالها صفوة من الصحابة الكرام ، وقد اتخذت من دار الأرقم بن أبي الأرقم مقراً لها . ثم نزلت آيات مباركات ، أمرت النبي ﷺ أن يجهر بالدعوة : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين[1] » ، « وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين[2] » .

فصعد رسول الله ﷺ الصفا[3] ، ونادى : يا معشر قريش ، فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، فأقبلوا واجتمعوا وقالوا : مالك يا محمد ؟ قال ﷺ : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط . قال ﷺ : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة — حتى

(١) سورة الحجر ، الآية الكريمة : ٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية الكريمة : ٢١٥ .

(٣) مكان مرتفع في أسفل جبل ابي قبيس في مواجهة الكعبة المشرفة من الجهة الشرقية ، وللجهر بالدعوة راجع : الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣١٨ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٤٠ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٣٨ .

عدد الأفخاذ من قريش ـ إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟!

وهكذا أعلنت الدعوة ، وأخذ النبي ﷺ يقف في الأسواق داعياً الناس : « أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » . وتتالت الآيات تركز على عبادة الله وحده ، وترك الأصنام والأوثان . ولكن كفار قريش لم يفكروا في مناقشة ما يسمعون ، بل كذبوا النبي ﷺ تارة ، ورموه بالجنون أو بالسحر تارة أخرى .

ولما رأت قريش الجد من رسول الله ﷺ في دعوته ، فاوضت عمه أبا طالب في أمره ، وتقدم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل السهمي ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وغيرهم ، وقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه . فردهم أبو طالب رداً رقيقاً . بقول جميل . ومضى رسول الله ﷺ في دعوته إلى الله عز وجل . فتضاعف عدد المسلمين . فمشى زعماء قريش ثانية إلى أبي طالب ، وقالوا : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وإنا قد اشتهيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا ، وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ..

وأعلم أبو طالب رسول الله ﷺ ما قالت قريش ، وقال له أبق على نفسك وعلي ولا تحملني مالا أطيق . فظن رسول الله ﷺ أن عمه خذله ، وضعف عن نصرته ، فقال له[1] : « يا عماه والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . فقال أبو طالب : « اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً » .

(١) الكامل في التاريخ ، جـ : ٢ ، ص : ٤٣ ، والطبري ، جـ : ٢ ، ص : ٣٢٦ .

وهكذا وقف ﷺ بروح معنوية عظيمة أمام قومه كلهم ، متمسكاً بالدعوة إلى الله سبحانه إلى النهاية .

وأغضب قريشاً سخرية رسول الله ﷺ من أصنامها ، كما أغضبها ازدياد أتباع محمد « يتيم أبي طالب » ، فمشت إلى أبي طالب تحمل معها عمارة بن الوليد لتقول له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد ، فتى قريش ، وأشعرهم وأجملهم ، فخذه فلك عقله ونصرته ، فاتخذه ولداً ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنا ، وخالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك نقتله ، فإنما رجل برجل .

فقال أبو طالب : والله لبئس ماتسومونني ! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً . فقال المطعم بن عدي : لقد أنصفك قومك ، وما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً . فقال أبو طالب : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك[1] .

فلما يئست قريش من إجابة طلبها ، اشتدت على من أسلم ، ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، وقام أبو طالب في بني هاشم ، فدعاهم إلى منع رسول الله ﷺ ، فأجابوه الى ذلك .

أسباب الهجرة إلى الحبشة

اشتد البلاء على أصحاب رسول الله ﷺ ، وهو في حماية عمه أبي طالب ، غير أنه ﷺ كان لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء .

ومن الذين عذبوا عذاباً شديداً دل على مبلغ تعصب وقسوة قريش ،

---

(١) الطبري ، جـ : ٢ ، ص : ٣٢٦ .

بلال بن رباح الحبشي ، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه سيده أمية بن خلف الجمحي في الرمضاء على وجهه وظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ، كي يكفر بمحمد ويعبد اللات والعزّى ، غير أنّ بلالاً وهو في هذه الحال كان يقول : أحد ، أحد .

ومن المستضعفين المعذّبين أبو اليقظان عمار بن ياسر مع أبيه وأمه ، ويمر النبي ﷺ بهم يعذبون فيقول : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » ، ومات ياسر في العذاب ، وطعن أبو جهل سمية بحربة فماتت ، لتكون أول شهيد في الإسلام .

وعذّب خبّاب بن الأرت ، وصهيب بن سنان الرومي ، وعامر بن فهيرة[1] .

حتى أن عقبة بن أبي معيط آذى النبي ﷺ بفناء الكعبة ، عندما أخذ بمنكب رسول الله فلفّ ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فجاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه فدفعه عن رسول الله ﷺ ، ثم قال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله !!

وهكذا اشتد العذاب على المسلمين رجالاً ونساءً ، وصار أذى المشركين الوثنيين لا يطاق ، فقال رسول الله ﷺ للمسلمين : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ ، حتى يجعل الله لكم فرَجاً مما أنتم فيه[2] » .

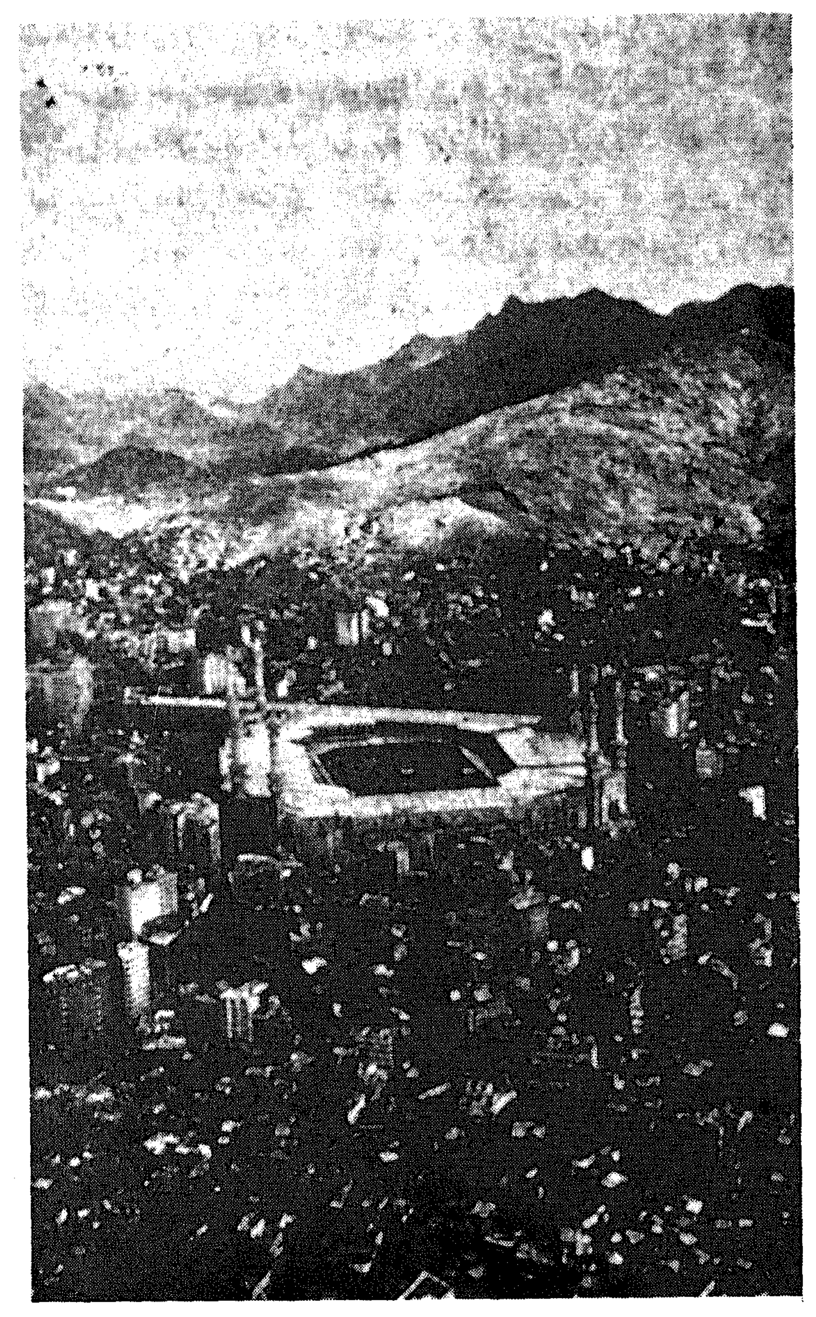
فخرج عند ذلك قسم من الصحابة إلى الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام .

---

(١) راجع « حياة الصحابة » لمحمد يوسف الكاندهلوي باب : « تحمل الشدائد في الله » ، ص : ٣٨٥ . فمن الذين عذبوا أيضا : عثمان بن عفان ص : ٤٢٢ ، وطلحة بن عبيد الله ص : ٤٢٢/٤٢٣ ، والزبير بن العوام ص : ٤٢٤ ، وابو ذر الغفاري ص : ٤٣٣ ، ومصعب بن عمير ص : ٤٤٥ ، وعبد الله بن حذافة السهمي ص : ٤٤٦ .. ثم ذكر عامة الصحابة ص : ٤٤٧ .

– وراجع الكامل ، جـ : ٢ ، ص : ٤٥ وما بعدها ، بحث « ذكر المستضعفين من المسلمين » .

(٢) ابن هشام ، جـ : ١ ، ص : ٢٨٠ ، والكامل في التاريخ ، جـ : ٢ ، ص : ٥١ . والطبري ، جـ : ٢ ، ص : ٣٢٩/٣٣٠ .



« مكة المكرمة »

هاجروا فراراً من الأذى والاضطهاد ، كي لا يصل الأذى والاضطهاد إلى درجة الموت ، كما حصل لوالد عمار وأمه .. ماتا تحت العذاب .. وهؤلاء ما تنعّموا بنعمة الإسلام بالمجّان ، فما ولدوا مسلمين ، ولا كانت البيئة من حولهم مسلمة فكانوا مسلمين . لقد فُتّحت عيونهم في بحر من الوثنية والأصنام ، وفي بحر من الجهل والظلام الفكري ، فدفعوا ثمن الإسلام غالياً ، عذاباً متواصلاً ، وخوفاً ورعباً ، وجوعا وسجنا واضطهاداً ، وسباباً وشتيمة ، وطرداً وهجرة .

وكان ممن هاجر إلى الحبشة : عثمان بن عفان ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، وعثمان بن مظعون ، وعامر بن ربيعة مع امرأته ليلى بنت أبي حثمة ، وأبو سبرة بن أبي رهم ، وسهيل بن وهب بن ربيعة .

فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة .

ثم خرج جعفر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة[1] ..

طلب المهاجرين من النجاشي

ولم تكتفِ قريش بايذاء الصحابة في الحجاز ، بل أرسلت وراءهم وفداً إلى الحبشة ، طلب من ملكها النجاشي تسليمهم كي يفتنوهم عن دينهم ، والمقصود من الفتنة ارجاع المسلم عن دينه ، والموت على الإيمان أسهل بكثير من الفتنة

---

(١) راجع اسماءهم عند الضرورة في ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٨٤/٢٨٥ .

والكفر بالله ونبيه[1] ..

لقد رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، فقررت أن تبعث رجلين جلدين إلى النجاشي ليردّ المهاجرين عليها فبعثت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، وجمعت لهما هدايا عظيمة للنجاشي ولكبار حاشيته .

تقول أم سلمة بنت أبي أمية : لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي ، أمِنّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدَم « الجلود » فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلّما النجاشي فيهم ، ثم قدّما إلى النجاشي هداياه ، ثم اسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم . فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي ، وقالا لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى « لجأ » إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مُبْتَدَع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أبصر بهم من غيرهم ، وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

وقدّم ابن أبي ربيعة وابن العاص هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلّماه ، فقالا له : أيها الملك .. إنه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا

---

(١) ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٨٨ . وتاريخ الامم الاسلامية ، الجزء الاول ، صفحة : ٧٥ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٣٥ . والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٥٤ . واخبار الهجرة الاولى الى الحبشة في « السيرة الحلبية » ج : ١ ، ص : ٣٥١ . وفي البداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٦٦ .

دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم ، فهم أعلم بهم من غيرهم ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت البطارقة للنجاشي قبل أن يجيب بشيء ، صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليردّاهم الى بلادهم وقومهم . فغضب النجاشي ، ثم قال : لا والله ، إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ، ورددتهم الى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

بين المهاجرين والنجاشي :

دعى النجاشي المهاجرين المسلمين . فتشاوروا قبل حضورهم في الأمر ، واتفقوا أن يقولوا ما علمهم إياه رسول الله ﷺ ، كائناً في ذلك ما هو كائن ، فلما جاؤوا وجدوا النجاشي قد نشر بأيدي أساقفته الصحف من حوله ، فقال : ماهذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل[1] ؟

فتقدّم جعفر بن أبي طالب فقال : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والذمام . ونهانا

---

(١) ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٩٠ . والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٥٥ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٧٠ .

عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ــ وعدد على النجاشي أمور الإسلام ــ ثم قال جعفر : فصدّقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا . فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك[1] .

وقبل أن نذكر موقف النجاشي ، نجد أن كلام جعفر اشتمل على أربع نقاط رئيسة : وصف حال العرب قبل الإسلام ، ثم ذكر ما جاء به الإسلام ، وبعدها نتيجة اتباع المسلمين لرسول الله ﷺ ، وأخيراً .. قول جعفر رضي الله عنه « واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك » كلام يخاطب قلب وعاطفة النجاشي ، وهذه حنكة ليتخذ النجاشي قراره الأخير بحق جماعة استجاروا به ، فلينظر ما يفعل بهم وهم المستجيرون به بغض النظر عن عقيدتهم .

قال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

فأجاب جعفر : نعم .

فقال النجاشي : فاقرأه علي . فقرأ عليه جعفر أول سورة مريم : « كهيعص، ذِكْرُ رحمةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زكريا ، إذ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيّاً ، قالَ رَبِّ إني وَهَنَ العظمُ مِنّي واشتعَلَ الرأسُ شيباً ولم أكُنْ بِدعائِكَ رَبِّ شقياً ... » .

فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى اخضلت لحاهم

(١) ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٩٠/٢٩١ .

وصحائفهم ، حين سمعوا ماتلا عليهم . ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . ثم توجهٔ في حديثه إلى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص وقال : انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون[1] .

فخرجا من عنده ، فقال عمرو بن العاص : والله لآتينّه غداً بما أستأصل به خضراءهم ، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد عيسى بن مريم عبد . فقال له عبد الله بن أبي ربيعة : لا تفعل فإنهم وإن كانوا خالفونا فان لهم رحماً وحقاً ، فقال : والله لأفعلن ! فلما كان الغد دخل عليه فقال : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً ، فارسل إليهم فسلهم عنه .

فبعث إليهم ، واجتمع القـوم ، وقرّر المسلمون المهاجرون أن يقولوا بعيسى بن مريم ما قال الله ، وما جاء به رسول الله ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن . فسألهم النجاشي : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟

فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال : والله ماعدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العويد ، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، لأن جعفراً لم يذكر أن عيسى ابن الله ، فقال النجاشي : وإن نخرتم والله ، اذهبوا — يخاطب المهاجرين — فأنتم شيوم[2] بأرضي ، والشيوم : الآمنون ، من سبّكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ..

ثم أمر برد هدايا قريش ، وقال : لا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ علي ملكي ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم

(١) هذه رواية ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٩٠ . اما رواية الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية »، ج : ٣ ، ص : ٧٤ فهي : « إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى ، انطلقوا راشدين ، لا والله لا اردهم عليكم » .

(٢) هي في بعض الروايات « سيوم » ، كالبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٧٤ .

فيه . فخرج عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار ، مع خير جار .

المهاجرون يفرحون بانتصار النجاشي :

حزن المسلمون المهاجرون حزناً كبيراً ، عندما نازع رجلٌ النجاشيَّ في ملكه ، وخافوا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي ، فيأتي رجل لا يعرف من حقهم ما كان النجاشي يعرف منه ، فسار النجاشي إليه . وخرج المسلمون يستطلعون الخبر ، حتى وصلوا ضفة النيل ، ففصلتهم عن ملتقى القوم ، وسألوا بعضهم : من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ، ثم يأتينا بالخبر ؟

فقال الزبير بن العوام : أنا ــ وكان من أحدث القوم سناً ــ فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم ، ودعا المسلمون الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه ، والتمكين له في البلاد ، وعاد الزبير وخرج من ماء النيل وهو يقول : ألا أبشروا ، فقد ظفر النجاشي ، وأهلك اللهُ عدوَّه ، ومكَّن له في بلاده ، ففرح المسلمون المهاجرون[1] .

وقال ملأ للنجاشيْ : إنك قد فارقت ديننا ، وخرجوا عليه ، فأرسل إلى جعفر وأصحابه ، وهيَّأ لهم سفناً ، وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هُزِمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا ، ثم عمد إلى كتاب ، فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن ، وخرج إلى الناس وقد صفّوا له ، فقال : يامعشر الحبشة ، ألست أحق الناس بكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فكيف رأيتم سيرتي فيكم ، قالوا :

---

(١) ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٩٢ .

خير سيرة ، قال : فما لكم ؟ قالوا : فارقت ديننا ، وزعمت ان عيسى عبد ، قال : فما تقولون أنتم في عيسى ؟ قالوا : نقول هو ابن الله ، فقال النجاشي وقد وضع يده على صدره حيث الكتاب في قبائه ، وأنا أشهد هذا ، لم يزد على هذا شيئاً ، وإنما يعني ماكتب . فرضوا وانصرفوا . وبلغ ذلك النبي ﷺ ، فلما مات النجاشي صلى عليه ، واستغفر له .

ازدياد حقد قريش بإسلام عمر بن الخطاب

قدم عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص على قريش يحملان خيبة وفشلاً ، فزاد حقدها[1] ، وبخاصّة بعد أن أسلم عمر بن الخطاب « وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره » فامتنع به أصحاب رسول الله ﷺ ، كما امتنعوا بإسلام حمزة بن عبد المطلب ، حتى غلبوا قريشاً فصلّوا عند الكعبة .

لقد كان إسلام عمر فتحاً ، وستكون هجرته نصراً ، وإمارته رحمة[2] .

أسلم عمر وكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف المسلمون أن عمر قد أسلم ، وعرفوا أنّهم بإسلامه وإسلام حمزة سيمنعون ، وسينتصفون بهما من عدوهم . وهذا ما كان ..

قال عمر لمّا أسلم : أي قريش أنقل للحديث ؟

فقيل له : جميل بن معمر الجمحي ، وكان يقال له « ذو القلبين » ، فغدا عليه عمر وقال له :

ـ أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد[3] ؟

(١) عيون الأثر ، ج : ٢ ، ص : ١٢١ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٧٩ .
(٢) الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٥٧ ، والسيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٥٢ـ٣٥٩ .
(٣) اسلام عمر رضي الله عنه في « البداية والنهاية » ، ج : ٣ ، ص : ٨٠ .

فقام جميل يجرّ رداءه واتبعه عمر ، وصرخ جميل في المسجد الحرام : يا معشر قريش ــ وهم في أنديتهم حول الكعبة ــ ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ ، فقال له عمر من خلفه : كذب ، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله • وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى زجر العاص بن وائل السهمي قريشاً •

ثم سار إلى أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ، سار إلى أبي جهل ، وضرب عليه الباب ، فقال أبو جهل : مرحباً وأهلاً بابن أختي ، ما جاء بك ؟ قال عمر : جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به ، قال عمر : فضرب الباب في وجهي وقال : قبّحك الله ، وقبّح ما جئت به •

المقاطعة

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا فيه أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، وحمزة أسلم ، وجعل الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني المطلب ، على أن لا يتزوجوا إليهم ، ولا يزوجوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، وعلّقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، توكيداً على أنفسهم[1] •

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، فدخلوا معه في شِعْبه ، واجتمعوا إليه ، وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى

---

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٣ ، وعيون الاثر ، ج : ٢ ، ص : ١٢٦ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٥٩ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٤١ • والسيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٧٣ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٨٤ •

ابن عبد المطلب إلى قريش ، فظاهرهم . فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شيء ، إلا سراً ، مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش .

وأحكم أبو جهل الحصار على المسلمين ، ولما رأى حكيمَ بنَ حزام بن خويلد بن أسد ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهي في شعب أبي طالب ، تعلّقَ به وزجره قائلاً : أتذهب بالطعام الى بني هاشم ؟! والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد ، فقال لأبي جهل : مالك وله ؟

فقال أبو جهل : يحمل الطعام الى بني هاشم .

فقال أبو البختري : طعام كان لعمته عنده ، بعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خلِّ سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البختري لحى بعير فضربه به فشجه ، ووطئه وطأ شديداً ، وقريش تكره أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم[1] .

العائدون من أرض الحبشة

فشل وفد قريش إلى الحبشة ، فلجأت إلى حيلة جديدة ، ترجع بها المسلمين المهاجرين ، فأشاعت أن أهل مكة أسلموا ، ووصل ذلك الحبشة ، فأقبل المهاجرون ، حتى إذا دنوا من مكة ، علموا أن إسلام أهل مكة كان باطلاً ، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار ، أو مستخفياً .. فمنهم من أقام حتى هاجر الى المدينة فشهد بدراً ، ومنهم من حبس حتى فاته بدر وغيره ، ومنهم من مات في مكة .

هاجر المسلمون إلى الحبشة ، هجرة أولى كان فيها اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة ، وهجرة ثانية كان فيها ثلاثة وثمانون رجلاً وثماني عشرة امرأة[2] .

---

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٤ ــ ٥ ، والسيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٧٣ اخبار الصحيفة .
(٢) عيون الأثر ، ج : ١ ، ص : ١١٥ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٤١ .

بدؤوا بالعودة الى المدينة بعد الهجرة وكان آخرهم جعفر بن أبي طالب ، الذي عاد في السنة الثامنة للهجرة عند فتح خيبر .

نقض الصحيفة

كان هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث ذا شرف في قومه ، وهو ابن أخي نضلة بن هشام بن عبد مناف لأمه ، لذا .. فقد وصل بني هاشم ، وأعان المسلمين في حصارهم ، فكان يأتي بالبعير وقد أوقره طعاماً ، حتى إذا أقبل به إلى فم الشّعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشّعب عليهم[1] .

ولا شك أنه كان لهذا العمل أهميته ، فقد وصل المسلمون إلى حالة من الشدة أكلوا بها ورق السمر ، والجلود اليابسة ، وكل ما تصل إليه أيديهم ، أي شيء كان .

وسار هشام إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة ــ وكانت أمّه عاتكة بنت عبد المطلب ــ فقال : يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، واخوانك حيث قد علمت ، لا يباعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم ابن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ، ما أجابك إليه أبداً .

قال زهير : ويحك يا هشام ! فماذا أصنع ؟! إنّما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى انقضها ، قال : قد وجدت رجلاً ، قال زهير : فمن هو ؟ قال هشام : أنا ، فقال زهير : أبغنا رجلاً ثالثاً .

فذهب هشام إلى المطعم بن عدي ، فقال له : يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلك

---

(1) تاريخ الامم الاسلامية ، ج : ١ ، ص : ٧٨ ، وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٧ ، والسيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٧٣ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٦١ . والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٩٥ .

بطنان من بني عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك ، موافق لقريش فيه ؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً ، قال المطعم : ويحك ياهشام! فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها قال هشام : قد وجدت ثانياً ، قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال المطعم : ابغنا ثالثاً ، قال : قد فعلت ، قال المطعم : من هو ؟ قال هشام : زهير بن أبي أمية ، قال المطعم : أبغنا رابعاً .

فذهب هشام إلى البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي، فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية ، والمطعم بن عدي ، وأنا معك ، قال : ابغنا خامساً .

فذهب هشام إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلّمه ، وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد ؟ قال : نعم ، ثم سمّى له القوم .

فاتعدوا خَطْم الحجون[1] ليلاً بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك ، وأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلّم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلّة ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة، أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل ــ وكان في ناحية المسجد ــ : كذبت والله لا تشق .

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت .

فقال أبو البختري : صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتِبَ فيها .

---

(١) موضع بأعلى مكة ، والخطم المقدمة .

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك .

فقال أبو جهل : هــذا أمر قـُضي بليل ، تـُشووِر فيه بغير هــذا المكان . وأبو طالب جالس في ناحية المسجد ، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأَرَضَة[1] قد أكلتها ، إلا باسمك اللهم .

ومما يذكر معجزة لرسول الله ﷺ ، أنه أعلم عمّه أبا طالب قائلاً : ياعم ، إن ربي الله قد سَلـَّط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسماً هو الله إلا اثبتته فيها ، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان . فقــال أبو طالب : أربك أخبرك بهذا ؟ قال ﷺ : نعم ، قال : فوالله ما يدخل عليك أحد" . ثم خرج الى قريش ، فقال : يامعشر قريش ، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا ، فهلم صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي ، فقال القوم : رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ، فقام المطعم عندها فأحضرها ، ثم نظروا ، فإذا هي كما قال ﷺ ، فزادهم ذلك شراً ، فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ماصنعوا .

وكانت قريش تهزأ بصحابة رسول الله ﷺ ، فإن رأوهم حول رسول الله كعمار وأبي فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية ، وصهيب وأشباههم من المسلمين، قال بعض القرشيين لبعضهم : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟! لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليــه ، وما خصـَّهم الله به دوننا .

وكفى الله نبيَّه أمر المستهزئين به ﷺ : « إنا كفيناك المستهزئين ، الــذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون[2] » .

فمنهم من عمي واستسقى بطنه فمات من انتفاخه ، كالأسود بن عبد يغوث ،

---

(١) الارضة : حشرة تاكل الخشب .

(٢) سورة الحجر ، الآية الكريمة : ٩٥ و ٩٦ .

ومنهم من قتلته شوكة شاكته ، كالعاص بن وائل ، أو انتقض له جرح قديم فقتله كالوليد بن المغيرة ، فقد كان بأسفل رجله جرح بسيط انتقض به بعد استهزائه بالرسول الكريم ﷺ ، فقتله . ومنهم الحارث بن الطلاطلة الذي امتلأ رأسه قيحاً فقتله .

وخرج المسلمون من شعب ابن أبي طالب لتبدأ مرحلة جديدة من الدعوة ، ألا وهي البحث عن نصير جديد لهذا الدين ، بعد أن أغلقت قريش قلبها دونه ، وأعرضت عنه .

* * *

أسئلة عديدة تطرح نفسها عما سبق من أحداث

١ ــ لماذا هاجر الصحابة إلى الحبشة بالذات ؟

٢ ــ هل خاف النبي ﷺ على أصحابه من خطر الردّة إذا بقوا في مكة ؟

٣ ــ أمْ هناك انقسام حاد في الرأي ضمن الطائفة الإسلامية الناشئة ، ففريق بزعامة أبي بكر الصديق ، وفريق بزعامة عثمان بن مظعون ، فهجّر النبيُّ ﷺ عثمانَ بن مظعون متحيّزاً لأبي بكر وفريقه ؟

٤ ــ هل ذهبوا للتجارة هناك في الحبشة ؟

٥ ــ أمْ هل طلب النبي ﷺ مساعدة عسكرية من النجاشي ؟

٦ ــ ولماذا تأخّر جعفر بالحبشة حتى السنة الثامنة للهجرة ؟

٧ ــ هل حقاً أن قريشاً وأبا جهل ... ما إن رأوا في محمد بن عبد الله النبوة والصدق في الدعوة ، حتى حاربوه هذه الحرب المرّة القاسية ؟

١ً ـ هاجر المسلمون إلى الحبشة ، ولم يكن من الممكن هجرتهم إلى احدى القبائل العربية ، أو إلى موطن أهل الكتاب ، أو اليمن ، أو الحيرة ، للأسـباب التالية :

فالقبائل العربية كانت ترفض دعوة رسول الله ﷺ ، إما مجاملة لقريش ، أو تمسكاً بدينها الوثني . ومواطن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، لم تكن الهجرة ممكنة إليها ، لأن كلاً من الجاليتين اليهودية والنصرانية كانت تنـازع الأخرى وتنافسها بالنفوذ الأدبي ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً ، لاسيما إذا كان من العرب الذين كانوا يحتقرونهم ويقولون فيهم : « ليس علينا في الذميين سبيل » .

أما اليمن .. فقد كانت مستعمرة فارسية ، ولم يكن الفرس يدينون بدين سماوي ، فلم يطمئن رسول الله ﷺ إلى الالتجاء إليهم ، وقد برهنت الأيام على بعد نظره ﷺ ، فقد قرر كسرى طلب النبي ﷺ ، بقصته المعروفة ، فصرف الله عز وجل بلاء كسرى بقتله بيد ابنه .

أما الحيرة .. فلها محاذيرها أيضاً ، فقريش لها صلات وثيقة معها ، ومصالح متبادلة ، وزيارات في مواسم منتظمة ، بالإضافة الى نفوذ فارس عليها . فإذا علمت قريش بوجود المسلمين فيها ، طلبتهم ، كما حاولت مع النجاشي الذي رفض تسليمهم لتسامحه وقوة خلقه[1] .

لما سبق اختار النبي ﷺ النجاشي بالذات ولم يختر الحبشة الأرض ، بل اختار ملكها : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظْلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه »[2] .

فاختيار الحبشة ، اختيار لملك لا يظلم عنده أحد .

---

(١) تاريخ الاسلام ، ج : ١ ، ص : ٨٧ .

(٢) الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٢٥ .

٢ — أما الخوف من خطر الردّة في مكة ، فأمر يرفضه الواقع . فقد رأينا موت ياسر وسمية في التعذيب ولم يرتدا ، ولا شك أن هذا ذروة التعذيب والاضطهاد ولكن لا ارتداد !!

كما تحمل بلال الحبشي العذاب الذي لا يطاق ولم يكفر برسول الله ﷺ ، ولم يرجع إلى عبادة اللات والعزّى .

وفي كتب التاريخ وكتب السيرة فصول كاملة تذكر عذاب المستضعفين من المسلمين واضطهادهم ، وما ارتد منهم أحد . فالصحابة أرادوا — كما قال جعفر بن أبي طالب — : « يا رسول الله ! ائذن لي أن آتي أرضاً أعبد الله فيها ، لا أخاف أحداً[١] » .

وقد صلب خبيب بن عدي بن مالك الأنصاري وهو يبتسم للموت[٢] ؟!
وردّ عثمان بن مظعون حماية الوليد بن المغيرة ليُعذَّب كما يُعذَّب اخوانه في الدين[٣] ؟!.

فكيف يرتد من يقبل الموت مبتسماً ، ويستعذب التعذيب ؟!

٣ — وانقسام الرأي بين أبي بكر الصديق وعثمان بن مظعون رضي الله عنهما ، رأي طرحه المستشرق « غايتاني »[٤] ، وهو رأي منقوض من أرومته لأمور عديدة ..

فليس من المعقول وجود صراع — مهما كان — والنبي ﷺ بين ظهرانيهم ، فلا زعامة ولا طاعة إلا لرسول الله ﷺ .

وكيف نقبل وجود فكرة الزعامة بين المسلمين ، وقد عرض الباحثون صوراً

(١) حياة الصحابة ، ج : ١ ، ص : ٥١٥ .
(٢) اسد الغابة ، ج : ٢ ، ص : ١٢١ .
(٣) الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٥٣ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٩٢ .
(٤) راجع « دراسات تاريخية باللغة الانكليزية » للسنة الثالثة ، كلية الآداب — قسم التاريخ ، في جامعة دمشق سنة ١٩٦٣ — ١٩٦٤ ، صفحة : ١٢—٢٢ .

شتى من زهد المسلمين بمناصب الحكم والسلطة ، كما ظهر في سيرة الكثير منهم أنهم تنازلوا عنها إلى من هم أكفأ منهم ؟

ولِمَ لَمْ يظهر أثر لهذا الخلاف بعد وفاة النبي ﷺ بين الفريقين ؟ كيف انطفأ ؟ كيف خبا أواره ؟ كيف انتهى خلاف هو من القدرة أن اضطر على اثره أحد الفريقين إلى الهجرة ؟

هذا شيء ‥ وشيء آخر أهم يقطع على « غايتاني » — ومن ينشر فكره — تساءله ‥ ذلك أن أبا بكر نفسه خرج مهاجراً لولا أن رده ابن الدُّغُنَّة !!

قالت السيدة عائشة[1] : « فلما ابتلي المسلمون ، خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة ، حتى إذا بلغ بَرْكَ الغِماد[2] ، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة[3] ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : اخرجني قومي ، فأريد أن أسيح في الأرض ، وأعبد ربي . قال ابن الدغنة : فان مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج ، إنك تكسب المعدوم[4] ، وتصل الرحم ، وتحمل الكلّ[5] ، وتقري الضيف[6] ، وتعين على نوائب الحق[7] فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج ‥‥ وقالوا لابن الدغنة : مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن به ، فاننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ‥ » .

---

(١) « حياة الصحابة » ، ج : ١ ، ص : ٤١٦/٤١٧ . والحديث باخراج البخاري ص : ٥٥٢ .
(٢) اسم موضع باليمن ، وقيل وراء مكة بخمس ليال .
(٣) قبيلة مشهورة من بني الهون .
(٤) اي تعطي الناس مالا يجدونه عند غيرك .
(٥) الثقل والعيال واليتيم ونحوه ‥
(٦) أي تهيء له طعامه ونزله لاكرامه .
(٧) وهي الحادثة والنازلة والمصيبة .

فأي خلاف بين أبي بكر وعثمان بن مظعون ، وقد شرع الأول باللحاق إلى حيث هاجر الثاني[1] .

٤ — فهل ذهبوا للتجارة إذن ؟

لا .. فالحبشة لم تكن السوق التجاري لقريش ، وإنما كانت تجارتها إما الى الشام وإما الى اليمن ، فلو أرادوا تجـارة لذهبوا إما الى الشام وإما الى اليمـن ..

ولو ذهب المهاجرون من أجل تجارة في الحبشة ، فما الذي يضر قريشاً ؟ لماذا ارسلت رجلين منها لاستدعاء المهاجرين إن لم يكن العداء عداء فكر وعقيدة ؟!؟

٥ — أما الدعم العسكري فمرفوض أيضاً ، فلو أراد ﷺ دعماً عسكرياً لأرسل وفداً من اثنين أو ثلاثة ، ثم عادوا بما طلب سلباً أو إيجاباً . ولكن الهجرة شملت أسراً بأطفالها ونسائها ، ومكث الجميع هناك سنوات . فلو طُلِبَ الدعم العسكري لتحـدد الموقف في الأيام الأولى ، أو الأشـهر الأولى بالرفض أو الايجاب . ولسجل لنا التاريخ في محادثة جعفر بن أبي طالب والنجاشي لمحات من طلب معونة عسكرية ، وهذا ما لم يكن .

٦ — أما بقاء جعفر في الحبشة ، فهو سفير دولة الإسلام عند النجاشي ، لاسيما وأن النجاشي أسلم ، وسمح ببقاء جعفر ومن معه لنشر الدعوة .

ومثل بقاء جعفر بقاء العباس في مكة بعد إسلامه[2] .

٧ — وأخيراً .. عرفت قريش نبوة محمد .. فعقلية سكان الجزيرة العربية وما جاورها من بلاد الفرس والروم كانت مهيَّأة لقبول ظهور نبي آخر الزمان ، حتى أن هرقل — كمثال — أمر صاحب مدينة إيلياء أن يستطلع رأيه في ظهور نبي آخر الزمان .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ : ٣ ، ص : ٩٤ .

(٢) للتوسع في هذه الردود راجع « الاسلام في قفص الاتهام » ، جلسة : قضية الهجرة الى الحبشة « الجلسة السابعة عشرة » .

فلماذا اذن رفضت قريش نبوة محمد بن عبد الله ، وقد رأت من معجزاته الكثير ؟

لقد عرفت قريش نبوة محمد ﷺ ، ولكنهم توقعوها في أمير زعيم ، ولم يتوقعوها في يتيم أبي طالب .. فحجبت عنهم لأنها لم تكن كما تهوى نفوسهم ، وهذا يثبته قول أبي جهل أن لا شك عنده بنبوة محمد ولكن النبوة في قبيلة محمد شرف لا نقبله ، لسبق قبيلة محمد قبيلته بهذا الشرف العظيم .

وبعضهم يقرّ بنبوة محمد لكنه يرفض شتم الأصنام والأوثان فقط .

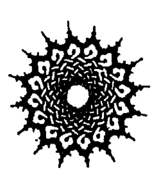
وحتى أبو طالب عرفها ، وخاف أن يقولها واستيقنتها روحه .

لذلك أسلم الجميع في فتح مكة حين وقف ﷺ في قريش منادياً : « ماترون أني فاعل بكم » ؟

قالت قريش كلها : « خيراً ، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم »

فقال ﷺ : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1]

فأسلموا جميعاً .



(١) هذه اخلاق الانبياء الكريمة ، اما قال يوسف عليه السلام لاخوته بعد ان حصحص الحق : « قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين » ، يوسف / ٩٢ .

قبل الهجرة

★ « كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » .

« محمد رسول الله ﷺ »

الرسول ﷺ في الطائف وموقف ثقيف منه

مزّقت الصحيفة ، وخرج بنو هاشم من شِعب أبي طالب . ويشاء الله سبحانه أن تكون وفاة خديجة وأبو طالب في عام واحد[1] .

لقد كانت خديجة له وزير صدق في الإسلام ، يشكو إليها ، ويستمد من تشجيعها ما يسكن به فؤاده .

وكان عمّه أبو طالب عضداً له وحرزاً في أمره ، ومنعة وناصراً على قومه . فلما هلك نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطلع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً ، فدخل ﷺ بيته والتراب على رأسه الشريف ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله ﷺ يقول لها : « لا تبكي يا بنية ، فإن الله

(١) سماه النبي ﷺ « عام الحزن » ، وهو العام العاشر من البعثة ، قبل الهجرة الى المدينة بثلاث سنوات .

مانع أباك » • وقـال ﷺ : « ما نالت مني قريش شيئاً أكرهـه حتى مـات أبو طالب[1] » •

ومما يذكر •• أنه لما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا الى أبي طالب ، فانطلق عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ، وأبو جهل ابن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب •• في رجال من أشرافهم فقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه فخذ له منا ، وخذ لنا منه ليكف عنا ، ونكف عنه ، وليدعنا ودیننا ، وندعه ودينه ، فبعث إليه أبو طالب فجاءه ﷺ ، فقال أبو طالب : يا ابن أخي ، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال ﷺ : « نعم ، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم » ، فقال أبو جهل : نعم وأبيك ، وعشر كلمات • قال ﷺ : « تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه » • فصفقوا بأيديهم • ثم قال : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن أمرك لعجب ! وقال بعضهم لبعض : إنه والله ماهذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون • فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه • ثم تفرقوا •• ومـات أبو طالب فنالت قريش من النبي ﷺ مالم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب • فخرج رسول الله ﷺ الى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل[2] •

خرج إليهم ﷺ ومعه زيد بن حارثة[3] ، وفي الطائف عمد الى نفر من ثقيف ،

---

(۱) الوفا باحوال المصطفى ، ج : ۱ ، ص : ۲۱۰ • وعيون الاثر ، ج : ۲ ، ص : ۱۲۹ ، والكامل في التاريخ ، ج : ۲ ، ص : ٦٣ ، والطبري ، ج : ۲ ، ص : ٣٤٤ • والسيرة الحلبية ، ج ١ ، ص : ٣٨٤ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٣٥ •

(۲) ابن هشام ، ج : ۲ ، ص : ٤٦/٤٧ •

(۳) لم يذكر ابن هشام في سيرته أن زيدا كان مع النبي ﷺ ، بل قال في ج : ۲ ، ص : ٤٨ : « فخرج اليهم وحده » ، بينما المراجع الاخرى تذكر ان زيدا كان مع النبي ﷺ ، كما سنرى بعد قليل ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص ٦٣ ، يذكر ان زيد بن حارثة كان مع النبي •

هم يومئذ ساداتها وأشرافها ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل بن عمرو بن عُمير ، ومسعود بن عمرو بن عُمير ، وحبيب بن عمرو بن عُمير[1] ..

فجلس إليهم ﷺ ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : هو يمرط[2] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : ما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي لي أن أكلمك[3] .

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير الطائف ، وقال لهم : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم[4] ذلك عليه . فلم يفعلوا ، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس .. وصار زيد بن حارثة يقي بنفسه رسول الله ﷺ من حجارة ثقيف ، وشج رأس زيد شجاً كبيراً[5] .

من نتائج رحلة الطائف

ألجأت حجارة ثقيف النبي الكريم ﷺ إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، وكانا فيه ، ورجع سفهاء قريش عنه ﷺ ، فعمد إلى ظل شجرة عنب ، فجلس تحتها ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف ، فلما

---

(١) وكانت عند احدهم إمرأة من قريش من بني جمح ، قال لها ﷺ بعد رده وصده : « ماذا لقينا من احمائك ؟! » .

(٢) يمرط : ينزع ويرمي به .

(٣) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٤٨ .

(٤) فيذئرهم : فيثيرهم .

(٥) « عيون الأثر » ، ج : ٢ ، ص : ١٣٤ ، وفي « الوفا باحوال المصطفى » ، ج : ١ ، ص:٢١٢ : « فاقام بالطائف عشرة أيام .. لا يدع احدا من اشرافهم الا جاءه وكلمه . فلم يجيبوه وخافوا على احداثهم ، فقالوا : يا محمد اخرج من بلدنا والحق بمحابّك من الارض ، واغروا به سفاءهم ، فجعلوا يرجمونه بالحجارة ، حتى ان رجليه لتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى لقد شج في راسه شجاجا » .

اطمأن رسول الله ﷺ اتجه بقلبه وروحه إلى من يلقى هذا في سبيله ومن أجله ، اتجه الى الله سبحانه ليقول :

« اللَّهم إني أشكو إليك ضَعْفَ قُوَّتي وقِلَّةَ حيلتي ، وهواني على النـــاس .

يا أرحم الراحمين ، آنت ربُّ المستضعَفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟! إلى بعيد يتجهَّمني[1] ، أو إلى عدوٍّ ملَّكته أمري ، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسعُ لي .

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصَلُح عليه أمر الدنيـا والآخرة من أن تُنزلَ بي غضبك ، أو تُحلَّ عليّ سخطك ، لك العُتبى حتى ترضى ، لا حول ولا قوة إلا بك » .

فلما رآه ابنا ربيعة « عتبة وشيبة » ، وما لقي من سفهاء قريش ، تحركت له رحمهما[2] ، فدَعَوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدَّاس ، فقالا له ، خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب الى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عَدَّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ، ثم قال له : كُلْ . فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال : بسم الله ، ثم أكل . فنظـر عَدَّاس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد . فقال له ﷺ : ومن أهل أي البلاد أنت يا عدّاس ، وما دينك ؟

قال عدّاس : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى .

فقال ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .

فقال له عَدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟

---

(١) يتجهمني : يلقاني بالغلظة والوجه الكريه ، « الوفا باحوال المصطفى » ج : ١ ، ص : ٢١٣ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٤٥ .

(٢) الرحم : الصلة والقرابة .

فقال ﷺ : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي[1] .

فأكبَّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه ، فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عدّاس قالا له : ويلك يا عَدّاس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : ياسيدي ما في الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي ، قالا له : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه[2] .

ولما انصرف النبي ﷺ من الطائف باتجاه مكة ، مَرَّ به بعض أهل مكة ، فقال رسول الله ﷺ لأحدهم : هل أنت مبلغ عني رسالة أرسلك بها ؟ قال : نعم. قال : ائتِ الأخنس بن شَريق فقل له يقول لك محمد هل أنت مجيري حتى أبلّغ رسالةَ ربي ؟ فأتاه ، فقال له ذلك ، فقال الأخنس : إن الحليف لا يجير على الصريح فأتى النبي فأخبره ، فقال ﷺ : إيت سهيل بن عمرو فقل له إن محمداً يقول لك هل أنت مجيري حتى ابلغ رسالة ربي فأتاه فقال له ذلك فقال : إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب . فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : ائت المُطْعِم بن عَدي ، فقل له : إن محمداً يقول لك : هل أنت مُجيري حتى أبلّغ رسالةَ ربي ؟

قال المطعم بن عدي : نعم فليدخل . فرجع إليه فأخبره . وأصبح المطعم بن عدي وقد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه ، فدخل المسجد ، فلما رآه أبو جهل قال : أمجيرٌ أم تابع ؟ قال : بل مجير ، قال : أجَرْنا مَن أجرتَ ، فدخل رسول الله ﷺ ، فانتهى الى الركن فاستلمه وصلى ركعتين ، وانصرف الى بيته ، ومطعم وأولاده مُطيفون به[3] .

وبعد عام الحزن ، عام موت خديجة وأبي طالب ، وتجاه هذه الحالة المؤلمة

---

(1) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٤٨/٤٩ . والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٤٦ . والكامل في التاريخ ج : ٢ ، ص : ٦٤ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٣٦ .

(2) السيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٨٥ .

(3) الوفا باحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢١٥ .

من الصدود والاعراض في مكة والطائف ، كانت معجزة الاسراء والمعراج • ولسنا هنا في صدد الاثباتات العلمية لهذه المعجزة ، فنحن المسلمين يكفينا وجودها في كتاب الله عز وجل لنؤمن بها ، ولكننا نقول : لكل نبي ورسول معجزاته التي تختلف من أحدهم إلى الآخر • وكلمة معجزة كافية ليفهم المرء أن الله سبحانه الذي خلق نواميس الكون ثابتة ضمن قوانين لا تتغير قادر على تغييرها والخروج عليها ، وإن هذا القول صحيح بالنسبة للانسان ، فقوانين الكون يندرج الإنسان بكل امكاناته تحتها ، أما الله سبحانه ، فهو الذي خلق ، وهو القادر بلا ريب على كل تغيير ، فالذي أسرى برسول الله ﷺ هو الله عز وجل خالق السموات والأرض ، وليس انساناً مثله : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير[1] » • فالذي أسرى برسول الله ﷺ سميع عليم ، خالق عظيم ، قادر على كل شيء •

وأنكر الأوربيون المسيحيون إسراء النبي ﷺ ، غير أنهم من ناحية أخرى يعترفون بعشرات المعجزات للأنبياء قبله ، وليس ذلك بمستغرب منهم ، إنما الغريب من ناحية ثانية أنهم يؤمنون بقيام المسيح وصعوده إلى السماء ، ففي آخر إنجيل مرقص : « ثم إن الرب بعدما كلمهم ، ارتفع الى السماء وجلس عن يمين الله » • وجاء في آخر انجيل لوقا : « وفيما هو — أي المسيح — يباركهم ، انفرد عنهم وأضعد الى السماء[2] » !!

رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل

عاد النبي ﷺ إلى مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلاً ممن آمن به من المستضعفين • فبدأ ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب

(١) الآيات الاولى من سورة الاسراء ، وهي مكية •
(٢) راجع « محمد رسول الله ﷺ » لمحمد رضا ، صفحة : ١١٦/١١٧ •

في المواسم ، وفي موسم الحج بخاصة ، ويدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبيّن لهم الله ما بعثه به[1] .

وكان ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتصدقوا بي ، وتمنعوني ، حتى أبين عن الله ما بعثني به .

وكان خلف رسول الله ﷺ رجل أحول وضيء ، له غديرتان[2] ، عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ ﷺ من قوله ، وما دعا إليه القبائل العربية ، قال ذلك الرجل : يا بني فلان ، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزّى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه . وكان هذا الرجل عمه أبو لهب[3] .

وكان ممن دعاهم رسول الله ﷺ كِندة فأبوا عليه ، وكلباً ، وبني حنيفة ، وبني عامر بن صعصعة ، وقال فراس بن عبد الله .. بن صعصعة : والله لو أني

---

(1) راجع : عيون الأثر ، جـ : ٢ ، ص : ١٥٢ ، والوفا باحوال المصطفى جـ : ١ ، ص : ٢١٥ ، وتاريخ الامم الاسلامية ، جـ : ١ ، ص : ٨١ ، والسيرة الحلبية ، جـ : ١ ، ص : ٣٣٣ ، والكامل في التاريخ جـ : ٢ ، ص : ٦٦ ، والطبري ، جـ : ٢ ، ص : ٣٥٣ ، والبداية والنهاية ، جـ : ٣ ، ص : ١٣٨ .

(2) الغديرة : الذوائب .

(3) ابن هشام ، جـ : ٢ ، ص : ٥٠ ، واسم ابي لهب : عبد العزى بن عبد المطلب . سالت عائشة رسول الله ﷺ : هل اتى عليك يوم كان اشد من يوم أحد ؟ فقال ﷺ : لقد لقيت من قومك « المراد قريش ـ ومفعول لقيت محذوف تقديره لقد لقيت منهم مالقيت » ، وكان اشد مالقيت منهم يوم العقبة ، اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني الى ما اردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم استفق الا بقرن الثعالب « أي لم افطن لنفسي وانتبه لحالي وللموضع الذي انا ذاهب اليه وفيه إلا وانا عند قرن الثعالب لكثرة همي الذي كنت فيه » ، فرفعت راسي فاذا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فاذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث اليك ملك الجبال لتامره بما شئت فيهم ، قال : فناداني ملك الجبال وسلم علي ، ثم قال : يامحمد ! إن الله قد سمع قول قومك لك وانا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك اليك لتامرني بامرك ، فما شئت ؟ « اي فامرني بما شئت » ، إن شئت ان اطبق عليهم الاخشبين « جبلا مكة ابو قبيس والجبل الذي يقابله » ، فقال رسول الله ﷺ : « بل ارجو ان يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئا » . راجع صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير / ١١١ .

أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلتُ به العرب ، ثم قال للنبي ﷺ : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال ﷺ : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، فقال فراس : أفتُهْدف[1] نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

ففراس لم يَرَ في رسول الله ﷺ نبوة ورسالة ، بل رأى زعامة مقبلة أرادها لقومه من بعده ﷺ .

والنبي ﷺ لا مداهنة في مواقفه كلها منذ البعثة الى وفاته ، فمن يسلم ، يسلم لله وحده ، لا لزعامة ولا لرئاسة ، وصدق النبي في الدعوة لا لبس فيه ، فالأمر لله وحده ، من يسلم يسلم لقناعة بشرع الله ، وبنبوة محمد بن عبد الله لا لدنيا يصيبها فيما بعد .

ولما عاد بنو عامر من مواسمهم ، حدَّثوا شيخاً لهم أدركته السِّنُّ حتى صار لا يقدر أن يوافي معهم المواسم ما حدث معهم قائلين : جاءنا فتى من قريش، يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ، ونخرج الى بلادنا التي نعيش عن قوة ونصير يدفع به ظلم الوثنية ومجابهتها . فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ، هل لها من تلاف ، هل لذُناباها من مطلب[2] ، والذي نفس (فلان) بيده ما تقوَّلها اسماعيلي"[3] ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟!

وعرض النبي ﷺ نفسه لكل قادم الى مكة من العرب ، يتصدى له ويدعوه إلى الله عز وجل ، كسويد بن صامت ، أخي بني عمرو بن عوف ، وكان يسميه قومه : الكامل ، لجلده وشعره وشرفه ونسبه ، فتصدَّى له رسول الله ﷺ ،

---

(١) اي تجعلها هدفا . والهدف كل شيء مرتفع من بناء او كثيب رمل او جبل ، ومنه سمي الغرض هدفا . « مختار الصحاح ص : ٦٩٢ » .

(٢) مثل يضرب لما فات ، واصله من ذنابي الطائر اذا افلت من حباله فطلبت الأخذ بذناباه .

(٣) من نسل اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام .

فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال ﷺ : وما الذي معك ؟ قال : صحيفة لقمان الحكيم . فقال له ﷺ : اعرضها عليّ ، فعرضها عليه ، فقال ﷺ : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى عليّ ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن العظيم ، ودعاه الى الإسلام ، فقال سويد : إن هذا القول حسن ، ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، ويقول بعض قومه : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم .

وسمع رسول الله ﷺ بقدوم أبي الحيسر أنس بن رافع الى مكة ، ومعه فتية من بني عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم النبي فأتاهم فجلس إليهم[1]، فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له ؟ فقالوا له وماذاك ؟ قال ﷺ : أنا رسول الله بعثني الى العباد ،أدعوهم الى أن يعبدو الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل عليّ الكتاب ، ثم ذكر لهم الاسلام، وتلا عليهم القرآن الكريم . فقال إياس بن معاذ ــ وكان غلاماً حدثاً ــ : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع ، حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس ، وقام رسول الله ﷺ ، وانصرفوا الى المدينة ، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج[2] .



ملاحظات حول ما سبق

١ ــ عاد النبي ﷺ من الطائف الى مكة المكرمة ، ودخلها تحت حماية

(١) ابن هشام ، جـ : ٢ ، ص : ٥٤ .

(٢) يوم بعاث : آخر الحروب بين الاوس والخزرج ، راجع « ايام العرب في الجاهلية »، صفحة : ٧٣.

وجوار مشرك هو المطعم بن عَدي ، بينما من تعاليم الإسلام ألاّ يستعين المسلم بالمشركين على المشركين • فكيف نوفّق بين الموقفين ؟

دخل النبي ﷺ مستجيراً بالمطعم بن عدي ، في وقت لم تكن للإسلام فيه دولة تحميه ، فقد كانت الدعوة في مهدها ، فدخل النبي الكريم بحماية مشرك ، وبخاصة فإن قريشاً علمت برحلة الطائف وبموقف ثقيف السلبي المؤلم ، فزاد ذلك من تطاول قريش ، فأبو طالب مات ، وثقيف ردت النبي رداً سيئاً فدخل إلى مكة بحماية مشرك •

ولم ينسَ رسول الله ﷺ هذا الموقف للمطعم بن عدي ، فقال ﷺ بعد معركة بدر الكبرى وأسرى قريش بين يديه : « لو كان المطعم بن عدي حياً فكلمني في هؤلاء النَّتْنَى ـ يعني أسارى بدر ـ لأطلقتهم له[1] •

فالإسلام لا ينسى جميل كافر مشرك ، ولا ينسى له إحسانه •

ومجمل القول •• إن موقف النبي ﷺ في مكة موقف حماية في دور ضعف •• دور المستضعفين والاضطهاد والتعذيب •• فكانت حماية أبي طالب قبل رحلة الطائف وحماية المطعم بن عدي بعدها •

ولكن لما قامت للإسلام دولته بعد الهجرة ، وأصبحت له قوته الذاتية التي تمثلت في قلوب رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، لم يكن ليستعين بالمشركين على المشركين ، لأنه انتقل الى دور القوة •

٣ ـ نسمع كثيراً في أيامنا هذه « بئس العالم على باب الحاكم » •• مع أن الأحداث التي سبقت الهجرة ترفض أن يتخذ الانسان هذا الموقف في وقت أعرض فيه الناس عن الإسلام •

وهذا النبي ﷺ في دور الضعف والاضطهاد يعرض نفسه وهو سيد ولد

---

(١) الوفا في أحوال المصطفى ، ص : ٢١٥ •

آدم على زعماء قريش ، وأشراف ثقيف ، ورؤساء القبائل العربية ليكسب منهم مسلماً نصيراً للدعوة ، وهذه رحلة الطائف ــ التي دامت عشرة أيام ، وفي رواية شهراً كاملاً ــ ذهاباً وإياباً على الأقدام في رحلة شاقة وفي منطقة وعرة ، ونتيجتها مسلم واحد فقط ، عبد خادم هو عَدّاس •

فرحلة الطائف درس في الدعوة عظيم ، ففيها سعي ونصب ، وعرض حسن لطيف للإسلام ، وفيها صبر واحتساب ، وفيها تحمل الأذى والعذاب « حتى إن رجليه لتدميان » ، وفيها الصدق والاخلاص لله : « إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي » ، وفيها خشية الله من التقصير في الدعوة على الرغم من الجهد والعمل الدؤوب مع التواضع الدائم لله عز وجل : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك » •

عرض النبي ﷺ نفسه على زعمـاء القبائل كلهم •• ولكن لما تمكّن الإسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأصبح إيمانٌ في القلوب ، جاءه الزعماء والأمراء والوجهاء الى طاعته عند قدميه الشريفين ••

فأعمال النبي ﷺ كلها كلمات تشاهد وتنظر وتقرأ للاتباع ، لا للتبرّك فحسب ، والإيمان الحق اتباع كامل لأمر الله ، وسنة نبيه ، لتصبح إرادة الداعي تبعاً لإرادة الله ، ورغبته تبعاً لرغائب رسول الله •

وحركة الداعي إن خالفت سُنّة النبي العظيم ، فلا تدل على حياة صحيحة مطلوبة ، وليست كل حركة تدل على حياة ، فتدحرج صخرة من علٍ يجرفها سيل ، لا تدل حركتها على حياة ، وحركة مروحة كهربائية بآلاف الدورات في الساعة لا تدل على حياة •• نحن بحاجة الى حركة داعية فيها حياة محمدية المنهج والسلوك والاقتداء ، خالصة لوجه الله ، فهي عندئذ ستنتج لا محالة ، وستبدل

الجهل علماً وعرفاناً ، والموت حياة وعزة ، والفرقة وحدة ومحبة •• والبعد عن الله قرباً وعبودية •

وإن وجد الهادي الذي يتلمس خـُطـَا رسول الله ﷺ في مراحل دعوته ، في سيرته من ألـِفـِها إلى يائها ، وجدت معاني النصر ، وبذور الفوز والعــزّة في الأمــة •

« العلماء ورثة الأنبياء » ، ماذا ورثوا مادام النبي ﷺ لم يورّث درهمــاً ولا ديناراً ؟! لقد ورثوا عمل النبي ودعوته في المجتمع ••

فيمكننا أن نسمي رحلة الطائف : « دَرْسُ الداعيــةِ العملي » أو : « درس داعية صادق » أو : « درس صدق في الدعوة » •••



بيعة العقبة الأولى

بيعة النساء

★ « بايعنا رسول الله ﷺ على ان لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل اولادنا ، ولا ناتي ببهتان نفتريه من بين ايدينا وارجلنا، ولا نعصيه في معروف ... ».

ولما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، واعزاز نبيه ﷺ ، خرج رسول الله في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على القبائل ، فالداعي عليه أن يكون حيث تدعوه الدعوة ، وهذا ما صنعه رسول الله ﷺ في كل موسم، فبينما هو عند العقبة[1] ، لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم ﷺ : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال ﷺ : أمن موالي اليهود ؟ قالوا : نعم ، قال ﷺ : أفلا تجلسون وأكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن .

لقد كان الخزرج أهل شرك ، وكان اليهود معهم في بلادهم أهل كتاب وعلم ، فكان اليهود يقولون لأهل المدينة إذا كان بينهم شيء : إن نبياً مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، فنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم[2] .

---

(١) العقبة التي بويع فيها النبي ﷺ بين منى ومكة ، تبعد عن مكة نحو ميلين ، عندها مسجد ومنها ترمى جمرة العقبة . « معجم البلدان ، جـ : ٤ ، ص : ١٣٤ » .

(٢) عيون الأثر ، جـ : ٢ ، ص : ١٥٥ ، وابن هشام ، جـ : ٢ ، ص : ٥٤ . والكامل في التاريخ ، جـ : ٢ ، ص : ٦٧ ، والطبري ، جـ : ٢ ، ص : ٣٥٥ .

فلما كلّم ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوا ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى آن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا .. فلما قدموا المدينة الى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله ﷺ ، ودعوهم الى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ .

يقول عبادة بن الصامت[1] : « كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلاً[2] ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء[3] ، وذلك قبل أن تفترض الحرب على أن :

١ ـ لا نشرك بالله شيئاً .

٢ ـ ولا نسرق .

٣ ـ ولا نزني .

٤ ـ ولا نقتل أولادنا .

٥ ـ ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا .

٦ ـ ولا نعصيه في معروف .

---

(١) عبادة بن الصامت بن قيس الانصاري الخزرجي « أبو الوليد » شهد العقبة الاولى والثانية ، وشهد بدرا واحدا والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، كان ممن جمع القرآن في زمن النبي ، ارسله عمر مع معاذ بن جبل وابي الدرداء ليعلموا القرآن بالشام ، ويفقهوهم في الدين ، فاقام عبادة بحمص . توفي وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . (أسد الغابة ، ج : ٥ ، ص : ١٧٤)

(٢) اسماؤهم في « عيون الاثر » ج : ١ ، ص : ١١٥ .

(٣) سميت بيعة النساء لوجود*عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهي اول امراة بايعت ، أو سميت بذلك لانها كانت على الامور التي ورد ذكرها في سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهي ، « يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على الا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين آيديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم» .

فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم الى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذّب » .

عاد أصحاب بيعة العقبة الأولى إلى المدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ معهم معلماً يفقّهم في الدين ، أرسل معهم مصعب بن عمير[1] ، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان يسمى المقرىء بالمدينة ، وكان منزله على أسعد بن زرارة (أبي أمامة) ، كان يصلي بهم ، فجمع الأوس والخزرج بنفسه دون تحرّج بينهما .

* * *

نظرات في بيعة العقبة الأولى

١ً — نَصّ البيعة موجز رائع ، شمل ما يلي :

١ — توحيد لله مطلق ، وهذا من حظ الروح والقلب : « لا نشرك بالله شيئاً » و :

٢ — « لا نسرق » ، أمانة وأمان ، وحفظ حقوق ولا اغتصاب ، وهذا من حق المجتمع والجماعة .

٣ — « ولا نزني » عفةٌ وصيانةٌ أعراض البعد عن الفاحشة ، وهذا من حق الجســد .

---

(١) الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٦٧ . والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٥٧ ، والسيرة الحلبية : ج ١ ، ص : ٣٣٦ . ومصعب بن عمير « ابو عبد الله » من السابقين الى الاسلام ، شهد بدرا مع رسول الله ﷺ ، وشهد احدا ومعه لواء رسول الله ﷺ ، وقتل باحد شهيدا وعمره أربعين سنة ، ويقال فيــه نزلت وفي أصحابه من المؤمنين : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. » الاحزاب / ٢٣ . مات مصعب ولم يترك الا ثوبا كان اذا غطوا راسه خرجت رجلاه ، واذا غطوا به رجليه خرج راسه ، فقال ﷺ : « غطوا راسه واجعلوا على رجليه الا ذخر » ، « حشيش طيب الرائحة » ، وقال رسول الله : « أيها الناس ائتوهم فزوروهم وسلموا عليهم فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم احد الى يوم القيامة الا ردوا عليه السلام » .
— راجع « أسد الغابة » . ج : ٥ ، ص : ١٨١ .

٤ ــ « ولا نقتل أولادنا » ، وهذا حقُّ الجيل الناشيء ، وحق اللبنة الأولى في المجتمع « الأسرة » .

٥ ــ « ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا » وهذا صدق اللسان، وبالتالي صدق المعاملات وهذا الشرط قمع للكذب في المجتمع ، فالبهتان : القول على إنسان ما لم يفعله ، أو ما لم يكن فيه .

٦ ــ « ولا نعصيه في معروف » ، وهذا حظ القيادة ، الطاعة بمعروف ، والقيادة إذا ربطت الطاعة لها بأمرها بمعروف ، فما ذلك إلا لأنها واثقة بأنها لن تأمر إلا بمعروف .

٧ ــ « فإن وفيتم فلكم الجنة » ، وهنا فكرة الجزاء والحساب والثواب . فثواب الطاعة والوفاء بهذه البنود سيكون الجنة .

٨ ــ أما الخيانة ، والنكث بما عاهدتم ، فشأنه الى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب . لم يذكر لهم ﷺ « جهنم والنار » فهذا ينفرهم ، بل ذكر الجنة للوفاء ، وترك أمر الخيانة لله ..

هذا .. ولما عاهدوا النبي ﷺ على ترك الشرك والسرقة والزنى وقتل الأولاد ، وترك البهتان .. فهذا يدل على أن هذه الصفات كانت محببة إليهم في مجتمعهم فجاء الإسلام منقذاً مخلّصاً .

٢ ــ أرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير معلماً« وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقّهم في الدين » فالإسلام إذن ليس انتساباً واسماً ، بل تعلم والتزام فكري بعد دراسة .

وسمي مصعب بن عمير بالمدينة « المقرىء » ، وشتان بين مقرىء اليوم ، ومقرىء الأمس الذي رباه رسول الله ﷺ ، مقرىء اليوم : نغم وصوت جميل وغناء .. لذلك لا تتجاوز قراءته الأذن ، ومقرىء الأمس : تعليم ونور وإيمان وصفاء ..

٣ ـ النبي الكريم أسلم على يده بعض الناس ، والباقي على يد الصحابة ، على يد أبي بكر وعثمان والزبير بن العوام •• فكلمة مسلم تعني داعية إلى الله ، ومصعب بن عمير مثال الداعية أيضاً ••

خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير في المدينة يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر •• وقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير : لا أبالك ، انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وأنههما عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفتيك ذلك ، هو ابن خالتي ، ولا أجد عليه مقدّماً ، فأخذ أسيد بن خضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه •

فوقف أسيد عليهما متشتماً ، وقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب ؟ أوتجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ماتكره ؟ قال أسيد : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالاسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر عنهما : والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهّله • ثم قال أسيد : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تصلي ، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف الى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً ، قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حُدّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم

قد عرفوا أنه ابن خالتك ، ليخفروك « لينقضوا عهدك » ، فقام سعد مغضباً مبادراً ، تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة ، فأخذ الحربة من يديه ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئاً ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعد مطمئنين ، عرف سعد أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتماً ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، أتغشانا في دارينا بما نكره ، فقال له مصعب وقد أخبره أسعد بن زرارة : أي مصعب ، جاءك والله سيد من وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان ، قال مصعب لسعد : أوتقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟ قال سعد : أنصفت ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالا : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، لإشراقه وتسهله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ، قالا : تغتسل فتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته ، فأقبل عامداً الى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير .

فلما رآه قومه مقبلاً ، قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يابني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة . ورجع أسعد ومصعب الى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس الى الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد ، وخطمة ووائل وواقف ، وهم من الأوس بن حارثة ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت ، وكان شاعراً لهم وقائداً يستمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام .

وهكذا .. حقق مصعب بن عمير الهدف الذي أرسله من أجله رسول الله ﷺ ، دعوة الى الله بحكمة ودأب .. فهيأ الى بيعة العقبة الثانية .

البيعة الكبرى

بيعة العقبة الثانية

بيعة الحرب

★ « أخطر بيعة في تاريخ الدعوة الاسلامية ، لقد فاجأت قريش بذمام المبادرة يفر من يدها ، بعد ان بايع الانصار النبي ﷺ : « انا منكم وانتم مني ، احارب من حاربتم ، واسالم من سالمتم » .

رجع مصعب بن عمير إلى مكة ، وخرج المسلمون معه الى الموسم ، مع حجّاج قومهم من أهل الشرك ، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة ، من أواسط أيام التشريق ، وأذن الله سبحانه بالنصر لنبيه ، واعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله .

فلما فرغ الحج ، قدموا إلى رسول الله ﷺ ، ومعهم أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام ، وهو سيد شريف في قومه ، فأخذه المسلمون معهم ، وكانوا يكتمون أمرهم أمامه ، فكلموه وقالوا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ، ثم دعوه الى الإسلام وأخبروه بميعاد رسول الله ﷺ في العقبة ، فأسلم وشهد العقبة

وكان نقيباً[1] .

ولما مضى ثلث الليل خرج أهل المدينة من رحالهم لميعاد رسول الله ﷺ ، تسللوا تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وأمرأتان هما : نسيبة بنت كعب (أم عمارة) ، وأسماء بنت عمرو بن عدي (أم منيع) .

وصل رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له .

ووصّى النبي ﷺ أبا بكر أن يقف على فَمِ الشعب من ناحية ، وأوصى علي بن أبي طالب أن يقف على فَمِ الشعب من الناحية الأخرى .

تكلم العباس فقال : يا معشر الخزرج[2] ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه (أي على الشرك) ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافونٍ له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده ، فقال الأنصار : قد سمعنا ما قلت ، فتكلَّمْ يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ ، وتلا القرآن ، ودعا الى الله ، ورغّب في الاسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فأخذ

---

(١) عيون الأثر ، ج : ٢ ، ص : ١٦٧ . وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٦١ . والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٦٩ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٦١ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٥٨ .

(٢) العرب يسمون الانصار كلهم الخزرج ، خزرجها واوسها .

★ ملاحظة : نستعمل كلمة « انصار » للدلالة على المسلمين في المدينه قبل الهجرة ، وكلمة « مهاجرين » للمسلمين في مكة قبل أن يهاجروا ، وكلمة « المدينة » ليثرب قبل وصول النبي ﷺ اليها ، وكلمة « مسجد » في مكة قبل الفتح .. وذلك من قبيل « مجاز الاول » ، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في سورة يوسف ، الآية ٣٦ : « ودخل معه السجن فتيان قال احدهما إني اراني اعصر خمرا » ، اي يعصر عنبا سيؤول الى خمر .

البراء بن معرور بيده ﷺ وقال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزُرَنا[1] • فبايعنا يارسول الله فنحن أبناء الحروب ، وأهل الحلقة[2] ، ورثناها كابراً عن كابر •

فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرحال حبالاً ، وإنا قاطعوها ــ يعني اليهود ــ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا !؟! فتبسَّم رسول الله ﷺ ، فهو الوفاء ، وهو معلم الوفاء ، وهذا ما كان بعد فتح مكة ، عاد الى المدينة ليتم حياته ودعوته فيها • تبسَّم ﷺ ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم[3] ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم •

فقال العباس بن عبادة : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنه ينبه لخطر المهمة المقبلة وعظيم أمرها ، قالوا : نعم • قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكتْ أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه إليه على نهكة الأموال[4] ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال ﷺ : الجنة ، قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه[5] •

---

(١) العرب تكني عن المراة بالازار ، وتكنى أيضا بالازار عن النفس ، وتجعل الثوب عبارة عن لابسه ، اي نمنع أزرنا يحتمل الوجهين معا •

(٢) الحلقة : الدروع •

(٣) يعني الحرمة ، اي ذمتي ذمتكم ، وحرمتي حرمتكم •

(٤) نهكة الأموال : نقصها •

(٥) راجع : الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٦٩ وما بعدها ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٦٢ ، والسيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٤٢ • وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٦٦ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٦٢ •

قال العباس بن عبادة هذا ليشد العقد لرسول الله ﷺ في أعناقهم ويزيد تمسكهم بالتزامهم ، ويحمسهم على وفائهم بعهدهم الذي قطعوه على أنفسهم ، وهذا يؤيده موقف قريب قادم لابن عبادة .

وكان من أول من بايع وضرب على يد رسول الله ﷺ أسعد بن زرارة وأبو الهيثم بن التيهان والبراء بن معرور .. ثم تتابع الناس . ونظم النبي الكريم الجماعة الإسلامية الأولى ، وخلع عنها الفوضى ، فقال : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس[1] . وقال ﷺ للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي ـ يعني المسلمين ـ قالوا : نعم .

ثم أمرهم ﷺ أن يلتحقوا برحالهم ، فقال العباس بن عبادة : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا ، فقال ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم . فعادوا إلى مضاجعهم ، وناموا حتى الصبح.

واستشمت قريش الخبر ، فغدت على رحال الأوس والخزرج ، فقال بعض القرشيين : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم . فقام مشركون من الأوس والخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا بشيء ، وما علمناه . وهذه حقيقة لأن المسلمين من الأوس والخزرج تسللوا في ذهابهم وايابهم دون أن يشعر بهم معظم قومهم[2] .

---

(١) تسعة من الخزرج : سعد بن عبادة ، اسعد بن زرارة ، سعد بن الربيع ، المنذر بن عمرو ، عبد الله بن رواحة ، البراء بن معرور ، عبد الله بن عمرو بن حرام ، عبادة بن الصامت ، رافع بن مالك ابن العجلان .

وثلاثة من الاوس : اسيد بن حضير ، سعد بن خيثمة ، ابو الهيثم بن التيهان ، او بدلا عنه (رفاعة ابن عبد المنذر) .

(٢) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٦٨ . والسيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٢٢ .

وأتت قريشٌ الحارثَ بن هشام بن المغيرة وعبد الله بن أبَيٍّ بن سلول، فقالوا : ما الخبر ، فقال : ابن سلول إن هذا الأمر جسيم ، ما كان قومي ليتفوتوا عليَّ بمثل هذا ، وما علمته كان ، فانصرفوا .

ولما نفر الناس من منى دققوا في البحث فوجدوه قد كان ، وخرجت قريش في طلب الأوس والخزرج ، فأدركوا سعد بن عبادة ، فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله[1] ، ثم اقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه من شعره . يقول سعد بن عبادة : فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع علي نفر من قريش ، فيهم رجل وضيء أبيض شعشاع ، حلو من الرجال ، فقلت في نفسي إن يَكُ عند أحد من القوم خير ، فعند هذا ، فلما دنا مني دفع يده فلكمني لكمة شديدة ، وكان هذا سهيل بن عمرو . فقلت في نفسي لا والله ما عندهم بعد هذا من خير ، فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ رحم لي رجل ممن كان معهم ، فقال : ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قال سعد : بلى والله ، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . قال : ويحك ! فاهتف باسم الرجلين ، واذكر ما بينك وبينهما ، ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما ، فوجدهما في المسجد عند الكعبة ، فقال لهما : إن رجلاً من الخزرج الآن يُضْرَب بالأبطح ويهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً ، قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة ، قالا : صدق والله ، إن كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن يُظلموا ببلده ، فخلَّصا سعداً من أيديهم ، فانطلق .

قال ابن سعد في الطبقات : وائتمرت الأنصار حين فقدوا سعد بن عبادة أن يَكرّوا إليه ، فإذا سعد قد طلع عليهم ، فدخل القوم جميعاً الى المدينة .

---

(١) الشراك الذي يشد به الرحل ، وفي لسان العرب ، ج : ٨ ، ص : ٣٥٢ : النسع : سير يضفر على هيئة أعنة النعال ، تشد بها الرحال ، والجمع انساع ونسوع ونسع ...

فلما قدم الأوس والخزرج إلى المدينة أظهروا الإسلام بها ، وأصبح الجو مهيّأ لهجرة الصحابة ولهجرة رسول الله ﷺ •

* * *

نظرات في بيعة العقبة الثانية

١ — ادركت قريش خطر بيعة العقبة الثانية ، فهي الفيصل بين عهدين من عهود الدعوة الاسلامية ، عهد مكة حيث السيطرة الوثنية القرشية ، عهد ابتلاء واختبار وأذى المسلمين ، وبين عهد الدعوة في المدينة ، عهد القوة ، ورفع الظلم ، وانتشار الدعوة •

وقريش خير من يعلم ما عليه الأوس والخزرج من قوة وبأس ، فقدّرت خطورة هذا العهد الجديد ، وبخاصة فإن تجارتها إلى الشام ستكون مهدّدة في ذهابها وإيابها ، ولا سيما أن المسلمين المكيين سيهاجرون جميعاً الى المدينة ، فيزداد الإسلام في المدينة قوة الى قوة الأوس والخزرج •

لقد كانت بيعة العقبة الثانية أخطر بيعة في تاريخ الاسلام ، فقد تطوّرت الأحداث بعدها تطوراً سريعاً وخطيراً لصالح الفئة المؤمنة المسلمة التي صبرت ، وأفلتت الأمر من قريش ، فلقد انفتحت أمام المسلمين أبوابٌ جديدة لانتشار الدعوة بعد طول احتباسها في مكة ، فَتَقَرَّبَ الفرج ، وكبر الأمل ، وفرّ اليأس ، وستنقضي بذلك ثلاث عشرة سنة من التعذيب والاضطهاد ، وأيقن المستضعفون المعذّبون بعد طول اذى وعظيم عذاب أن النصر قريب ، فتسابقوا إلى الهجرة[1] •

وفوجئت قريش بذمام المبادرة يفر من يدها ، لتبدأ الدعوة التي احتبستها في شعاب مكة تجد طريقها إلى قلوب العرب ، بعد أن أصبح الموقف من جميع

---

(١) صورة من حياة الرسول ، صفحة : ١٢٨ بتصرف •

جوانبه بيد المسلمين • وتبع ذلك أن مهابة قريش وزعامتها بـدأت تتلاشى ، فصدمت بيعة العقبة الثانيـة القرشيين ، وزلزلت الأرضَ من تحت أقدامهم ، وطاشت أحلامهم ، حتى لاحقت الأنصار كما مر معنا ، وألقت القبض على سعد ابن عبادة ، لقد طلبت قريش الأنصار في كل طريق ، وفي كل وجه ، تريد نزع البيعة من أعناقهم ، ولكن هيهات هيهات •

٢ ــ في حديث رسول الله ﷺ روعة في تسلسل العرض ، فهو ﷺ لم يشترط في بيعة العقبة الثانية شيئاً في بداية حديثه ، بل تدرّج تدرّجاً رائعاً •

دعا إلى الله أولاً ، وفي حديث رسول الله ﷺ عذوبة عنـدما يتكلم عن حبيبه رب العالمين ، فمع نطقه نور إلهي يخرق حجب القلوب ، نور يملأ أرجـاء النفس والروح ، يعرّفها الله عز وجل أولاً ، فتصبح مهيّأة إلى سماع مبادىء الإسلام ثانياً ، وبعد معرفة الله قلباً ، وأحكام ومبادىء الإسلام عقلاً ، أتى حديث رسول الله ﷺ لحماية الداعي ، الذي يبث الإيمان في القلوب والعقول ، فقبلوا أن يمنعوه مما يمنَعُون نساءهم وأبناءهم كمرحلة ثالثة فيحديثه المبارك الشريف•

ولما اطمأن ﷺ لقبول المرحلة الثالثة ، جاء قوله العلني الصريح : الدم الدم والهدم الهدمْ ، فعلمت الأوس والخزرج أبعاد ما أقدموا إليه ، فقالوا عندها : « فنحن والله أبناء الحرب ، وأهل الحلقة ــ أهل الدروع ــ ورثناها كابراً عـن كابر » •

ما أروع حكمتك يا سيدي يا رسول الله ، ﷺ ، وجزاك الله عز وجل خير ما جزى نبياً عن قومه ، آملين ونحن المؤمنين بك واطمأنت افئدتنا إلى هديك ونهجك أن نكون تحت لوائك يوم القيامة ، وهذا هو الشرف الأعظم ، وهذه هي التجارة التي لن تبور •

ما أروعك يا سيدي يا رسول الله •• وما أبدع أسلوبك •• فالكلمة الطيبة

الحكيمة الجميلة تقرب القلوب وتستعبدها ، والكلمة العشواء الفظّة تخرّب القلوب وتفسد أمة .

ومن هنا ننطلق إلى سؤال ضمن هذه الملاحظات :

ــ لِمَ كانت هذه الاستجابة الرائعة من الأنصار ؟

ــ لِمَ لاقت الدعوة قبولاً كبيراً في المدينة ، وانتشرت انتشار النار في الهشيم ، فأسلم في المدينة خلال عامين تقريباً أكثر ممن أسلم في مكة خلال ثلاث عشرة سنة ؟!؟

١ ــ إن الاختلاف الواضح في البيئة والمناخ بين مكة والمدينة تركا أثراً كبيراً واضحاً أيضاً على طبائع السكان في كلتا المدينتين ، فعُرِف أهل مكة بالشدة والصلابة في طباعهم ، وبالقسوة والجفاف في معاملاتهم ، في حين عُرِف أهل المدينة بلين الجانب ، ودماثة الخلق ، وحسن المعاملة[1] .

٢ ــ كما كانت عقلية الأوس والخزرج في المدينة مهيأة لظهور نبي آخر الزمان ، فلما رأوا رسول الله وسمعوا تعاليم الإسلام ، أدركوا مبلغ الشبه بينه وبين ما توعدهم به اليهود ، فبادروا إلى تصديقه ، حتى لا يسبقهم هؤلاء اليهود الى اتباعه ، فيقتلوهم قتل عاد وإرم ، لهذا لا نعجب إذا رأينا أهل يثرب أكثر تحمساً للإسلام .

٣ ــ ولعل حالة المجتمع في المدينة كانت تدعو إلى انتهاز مثل هذه الفرصة ، إذ وجد أهلها في هذا الدين مايوحد كلمتهم ، ويجمع شملهم ، ويقضي على مابينهم من تنازع وبغضاء ، كما وجدوا في شخصية الرسول ﷺ بغيتهم المنشودة ، إذ عرفوه رجلاً من أكرم بيوتات قريش وساداتها . ثم هو ابن آمنة من بني النجار، أحد بطون الخزرج ، ومع ذلك فهو نبي يستطيعون أن يطاولوا اليهود بما ينزل

(١) صور من حياة الرسول ، ص : ٢١٩ .

عليه من وحي ، فهو الذي يستطيع أن يجمع الأوس والخزرج تحت لوائه ، وكانوا أحوج الى ذلك بعد يوم بُعاث الذي كان النصر فيه للأوس ، ولعل انهـزام الخزرج يوم بعاث قد جعلهم أكثر استعداداً لقبول الدين الاسلامي ، حتى كانوا أسبق إليه من بني عمهم الأوس[1] .

كما أدرك الطرفان ـ الأوس والخزرج ـ أن اليهود ينازعونهم سيادتهم في المدينة ، وعلى مرّ الأيام تشتد شوكتهم ، ولجؤوا إلى الحيلة للتفريق والوقيعة بينهما ، ومازالوا يشيعون بينهم أسباب العداوة ، حتى تم لهـم ما أرادوا من ذلك ، وحل الخصام محل الوئام ، وحلّت البغضاء محل المودّة ، فقامت بينهما حروب طاحنة . وشعر الأوس والخزرج بعد يوم بُعَاث بسوء ما يصنع بعضهم ببعض ، وأدركوا أن الغالب والمغلوب منهما كليهما خاسر في هذه الخصومة ، وأن الكاسب فيها هم اليهود فقط ، وفكر العقلاء بتنصيب رجل من الخزرج ينضوون تحت لوائه جميعاً ، ولكن الله عز وجل أراد بهم خيراً ممـا أرادوا بأنفسهم ، فاختارهم واجتباهم وجعلهم أنصاراً لرسول الله ﷺ .

٣ـ يندب كثيرون من أنصاف المثقفين حظ المرأة في الإسلام ، ويتهمونه أنه عَطّلها وكبت طاقاتها ، وعزلها عن المجتمع وما يحيط بها من أحداث .. وماشابه من هذه الترّهات ..

والمطّلع المنصف يلمس دور المرأة الرائع في الإسلام منذ اللحظة الأولى للبعثـة .

أما كانت خديجة بنت خويلد وزير صدق لرسول الله ﷺ ، يشكو إليهـا ويستشيرها ويطمئن لرأيها ؟!؟

وفي هجرة الحبشة الأولى والثانية أما كان نسوة يشاركن الرجال المهاجرين جهادهم ، ومنهن أسماء بنت عميس بن النعمان ، وفاطمة بنت صفوان بن أمية ،

(١) تاريخ الاسلام ، جـ : ١ ، ص : ٩٣/٩٤ .

وأمينة بنت خلف ، وحبيبة بنت أبي سفيان ، وبركة بنت يسار ، وأم حرملة بنت عبد الأسود بن جذيمة ، وربطة بنت الحارث ..؟.

وفي بيعة العقبة الأولى ، أو في بيعة « النساء » كما تسَمَّى ، أما كانت عفراء بنت عبيد بن ثعلبة أول امرأة تبايع رسول الله ﷺ ؟

وفي بيعة العقبة الثانية ، أو بيعة الحرب ، امرأتان بايعتا رسول الله ﷺ على الحرب والقتال لاعلاء كلمة الله عز وجل ، وهما : أم عمارة ـ نسيبة بنت كعب، وأم منيع ، أسماء بنت عمرو ..

وسنرى مشاركة المرأة في الهجرة .. كما رأينا مشاركتها في بدء الدعوة فقد كانت المرأة أول شهيد في الإسلام ألا وهي سمية رضي الله عنها .

ولن نقارن هنا حال المرأة قبل الإسلام وما حقّق الإسلام لها ، فهذا قمنا به في كتابنا « الإسلام في قفص الاتهام » ، ولكننا نقول :

إن للمرأة صفحات مجيدة في تاريخ الإسلام ، ومنذ أيامه الأولى ، بل منذ ساعاته الأولى .. لقد أخذت المرأة دورها الطبيعي ومكانتها اللائقة بكل عفة وطهارة وإيمان . فمن يندب حظها ، ويطالب بحقوقها ، إما جاهل واما حاقد .

ونحن نرى أن لا حقوق لها ، ولا حقوق للرجل ، بل حقوق أسرة ترفرف عليها أجنحة السعادة والهناءة ، أسرة يسكن فيها الرجل إلى المرأة ، وتسكن فيها المرأة الى الرجل يخيِّم عليهما الخير والتفاهم والسعادة ، لتحلّق هذه الأسرة بجناحين متوازنين متساويين ، يشكل الرجل أحدهما ، وتشكل المرأة الجناح الآخر ، والاثنان يسعيان معاً لبناء أطفالهما ، أبطال الغد الخيِّرين .



نزول الأمر بالقتال

✶ « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا ربنا الله » .

« قرآن كريم »

بدأ إسلام النبي ﷺ من غار حراء ، فصار مع الله وبالله ولله ..

مكث في الغار لتهيئة قلبه وروحه ، اعتكف في الغار بين صخور وحجارة لينقطع عن الخلق ، ويتجه إلى الخالق .

وبقاء المسلمين في مكة ثلاث عشرة سنة لم يَكُن ضياعاً ، بل كان فترة تربية إيمانية روحية للمسلمين ، وكان غار حراء الصحابة خلالها وبعدها قلب رسول الله ﷺ .

لقد كانت مكة مرحلة تهيئة قلبية ، واستعداد روحي للتمسك بأهداف العقيدة تمسكاً مثالياً . ومن بعد الغار ، كان السهر والبذل والعطاء والتضحية والدموع ، كان الجوع والعطش والتعذيب .. وأوذي النبي ﷺ ، والذين آمنوا معه ، أوذوا في أهلهم وكرامتهم وبدنهم وأوطانهم .. وفي النهاية : « ولقد

سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون[1] » ، فكلمة « منصورون » لا تكون إلا بعد معركة ، إذن لا بد من معركة ، وقد تهيأ رجالها وسلاحها ومكانها وزمانها .

والناظر في السور التي نزلت على قلب المصطفى ﷺ قبل الهجرة ــ الآيات المكية ــ يجدها تركز على التوحيد ورفض الأوثان والأصنام بطريق المنطق والمحاكمة العقلية ، ويجدها آيات جزاء وقيامة ، وآيات عبادات[2] . وسور فيها قصص الأنبياء وتشمل :

١ ــ ارسال الأنبياء إلى أقوامهم في الشعوب السابقة .

٢ ــ معارك الأنبياء مع أقوامهم معركة حتمية بين الكفر والايمان ، بين الحق والباطل .

٣ ــ صبر الأنبياء ومن آمن معهم ، وتحملهم العذاب .

٤ ــ نصر الله لأنبيائه والمؤمنين به .

٥ ــ اصبر يا محمد صبرهم ، وأصمد صمودهم ، والعاقبة لك ولمن آمن بك . وفي أواخر أيام النبي ﷺ نزلت آيات القتال .

ومن السور المكية ، سورة يونس ، وفيها : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » الآية : ٣٩. ثم جاء في السورة : « واتل عليهم نبأ نوح .. »، « ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، كذلك نطبع على قلوب المعتدين . ثم بعثنا من بعدهم موسى

---

(١) من سورة الصافات (وهي مكية) ، الآية الكريمة : ١٧١/١٧٢ ، وتتمة الآيات بعدها : « وإن جندنا لهم الغالبون ، فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون » .

(٢) بينما السور المدنية سور تشريع بعد آيات الصبر والتحمل . فهي آيات دولة بكل ابعادها .

وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » .. كلها آيات صبر وصمود .

وكذلك سورة البروج ، والكهف ، وابراهيم ، ونوح ، وطه ، والأنبياء ، والقصص ، وق ، والنجم ، وفصّلت ، والواقعة .. كلها سور إيمان وصبر وصمود وتحمل عذاب ، والعاقبة للتقوى .

ومما يذكر أن سورة يوسف مكية ، نزلت وظروف النبوة في مكة ظروف شاقة ، فالنبي ﷺ بمفرده ، ليس له أنصار ، وليس له أعوان ، وأهل مكة بكل طاقاتهم وزعاماتهم كانوا إلباً وحرباً على رسول الله ﷺ .

سورة يوسف سورة مكية نزلت في أوج اضطهاد النبي الكريم ، فهي دواء له ﷺ في ظروف الضغط والتشديد والخوف والرعب .. فهي تعليم بطريق القصة ، والتعليم بالقصة أرقى أنواع التعليم .

ابتلي يوسف عليه السلام وهو طفل ، بل نزل المعركة مع اخوته وهو طفل ، فتحمّل الشدائد ، وتحمّل ايذاء الأرحام ، الأخوة .. وهذا يشبه تماماً إيذاء النبي ﷺ من أرحامه وعشيرته من عمه أبي لهب وقريش .

ففي فوران المعركة ، نزلت سورة يوسف ، وفيها مَكْرُ أخوتِهِ ، وابتلاءٌ بامرأة العزيز حيث الجمال والمال والجاه ، فصمد يوسف بوجه ذلك بثبات ورجولة وعَظَمة وشجاعة وانتصر في المعركة مع النفس والشيطان ، فلا انهزام في أي معركة بعد ذلك من معارك الحياة .

اتهم يوسف في دينه ، كما اتهم في أخلاقه وسلوكه ، فصبر ، ورضي بالله عز وجل نصيراً ، وإذا عناية الله رافقته فلاخوف ولا حزن . فظاهر الأحداث محنة ليوسف ، ولكن لو لم يُلْقَ في البئر ، ولم يُشْرَ ، ولم يدخل السجن .. كما أن الرؤيا من الله ، والتأويل من عندُ الله .. لما صار عزيز مصر .. فالأساس الصدق والصبر ، والاخلاص في الجلوة والخلوة ، فيكون وراء المحن كل النِّعَم .

فسورة يوسف عليه السلام ، والنبي ﷺ في أعنف المعارك ، والأعداء حوله بكل الأسلحة المادية والمعنوية ، نزلت السورة وفيها قصة نبي ، فيامحمد إن عذبتك قريش ، فيوسف عذبه إخوته ، فانظر النتيجة والنهاية ، انظر الى الكريم بن الكريم ابن الكريم يباع بيع العبيد ، فصبر ، فاصبر كصبره .

والنتيجة من (اقتلوا يوسف) ، ومن (شروه بثمن بخس) ، ومن (بلاء زليخا وبلاء السجن) .. إلى (أأنت يوسف) ، يوسف الملك ، يوسف العزيز ، يوسف المجد « قد مَنَّ اللهُ علينا إنَّه مَن يَتَّقِ ويصبر فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المحسنين » ، الذين أحسنوا في تقواهم وصبرهم في محنهم .

فسورة يوسف ــ وهي مكية كما ذكرنا ــ سورة الشباب الصامد المؤمن، كيف يصل إلى عز الطاعة ، وعز الصبر ، وعز الصمود ، وعز العفاف ، وعز العزيمة ...

لقد أُغري يوسف بالمرأة ومعها المال والجاه ، وأُغري رسول الله بالمرأة والمال والجاه ، عرضتها قريش عليه بوجود عمه أبي طالب ، فاصبر يا محمد كما صبر أخوك يوسف من قبل .

وفي آخر السورة : « حتى إذا استيأسَ الرُّسُلُ وظَنُّوا أنَّهم قد كُذِبوا جاءَهُم نَصْرُنا فَنُجِّي من نَشَاءُ ولا يُرَدُّ بأسُنا عَنِ القومِ المجرمين ، لقد كان في قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأولي الألبابِ ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديقَ الذي بين يديهِ وتفصيلَ كُلِّ شيءٍ وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمِنُون » الآيات ١١٠/١١١ .

وقبيل بيعة العقبة الثانية ، وفي أواخر أيام النبي في مكة نزلت آيات القتال ، بعد آيات الصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل[1] .

---

(١) الآيات التي تخاطب النبي ﷺ بلزوم الصبر كثيرة ، منها : « واتبع مايوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » ، يونس/١٠٩ . « .. فاصبر إن العاقبة للمتقين » هود /٤٩ « وأصبر فان =

وفي البيعة ، وفي طيات عهدها ، حملت الاذن بالحرب لايقاف ايذاء الشرك وأهله .

لقد اضطهدت قريش من اتبع النبي حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم من بلادهم ، فهم من بين مفتون في دينه ، ومن بين مُعَذَّب بأيديهم ، وبين هارب في البلاد فراراً منهم ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفي كل وجهٍ .

فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أراده لهم من الكرامة ، وكذّبوا نبيه ﷺ ، وعذّبوا ونفوا من عَبَدَه وَوَحَّده وصَدَّق نبيه ، واعتصم بدينه ، أذِن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أوّل آية أنزلت في إذنه في الحرب ، وإحلاله الدماء والقتال لمن بغى عليهم ، قول الله تبارك وتعالى : « أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربّنا الله ، ولولا دفْع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مَكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور[1] » .

أي أن الله سبحانه أحل لهم القتال لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما

=

الله لا يضيع أجر المحسنين » ، هود/١١٥ . « فاصبر على مايقولون .. » طه/١٣٠ ، « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » ، الروم/٦٠ ، وفي سورة غافر « فاصبر إن وعد الله حق » في الآيتين: ٥٥و٧٦ . « فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم .. » الاحقاف/٣٥ . « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا .. » الطور /٤٨ . « فاصبر صبرا جميلا » المعارج /٥ ، « ولربك فاصبر » المدثر/٧ .

(١) سورة الحج ، الآية الكريمة : ٤٠

بينهم وبين الناس ، إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر .

ثم أنزل الله تبارك وتعالى : « وقاتلوا حتى لا تكون فتنة » ، أي حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ، « ويكون الدين لله » أي حتى يعبد الله ، لا يعبد معه غيره .

وهكذا .. وبعد ثلاث عشرة سنة من العناء والصبر والابتلاء والاعتداء ، جاء وعد الله بالنصر ، وجاء إذنه بالقتال بعد طول صبر وتحمل وايذاء .. فلِمَ تأخر النّصر ثلاث عشرة سنة ؟

تأخّر لأن النصر السريع الذي لا يكلّف عناء ، والذي يتنزل هيّنا ليّناً على القاعدين المستريحين يعطل تلك الطاقات عن الظهور ، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها[1] ..

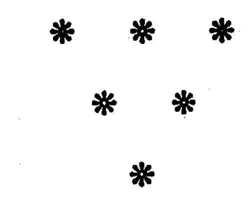
وفوق ذلك فإن النصر السريع الهيّن الليّن سهل فقدانه وضياعه ، أولاً لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة ، وثانياً لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ، ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه ، فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه .

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة، والكر والفر ، والقوة والضعف ، والتقدم والتقهقر ، ومن المشاعر المصاحبة لها.. من الأمل والألم ، ومن الفرح والغم ، ومن الاطمئنان والقلق ، ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة .. ومعها التجمع والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها ، وكشف نقط الضعف ونقط القوة ، وتدبير الأمور في جميع الحالات ..

---

(١) جواب السؤال المطروح هنا من تفسير الآيات السابقة في الظلال لسيد قطب ، راجع جـ : ٥ ، ص : ٦٠٣ وما بعدها .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله .. جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم أنفسهم ، ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء[1].





(١) الظلال ، ج : ٥ ، ص : ٦٠٤ « والاسلام مع هذا لا يعد القتال غاية لذاته ، ولا يأذن به إلالغاية أكبر من المهادنة والموادعة .. إن السلام هو غاية الاسلام ، ولكنه السلام الذي لا اعتداء فيه ولا ظلم ولا بغي ولا عدوان ، أما حيث يقع البغي والعدوان على أي مقوم من مقومات الانسانية الفاضلة كحرية العقيدة وحرية العبادة ... فالاسلام لا يرضى حينئذ بسلام يقوم على هذا العدوان ، فالسلام في الاسلام تحقق الخير والعدل على النهج الذي رسمه الله للعباد » .

« السلام العالمي والاسلامي » بتصرف .

المهاجرون الى المدينة

✶ « إنّ الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا
ودارا تامنون بها » ٠

« رسول الله ﷺ »

إن سير الأحداث التالية قرّره سير الأحداث السابقة ٠٠

أما وقد بايع الأنصار رسول الله ﷺ ، وأن يمنعوه في أرضهم في المدينة ، هو ومن اتبعه ٠٠ مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم ، فقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه في مكة بالخروج الى المدينة ، والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال ﷺ : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها »، فخرجوا جماعة وراء جماعة ، وأقام النبي ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن الله له بالخروج من مكة والهجرة الى المدينة ٠

طلائع المهاجرين الى المدينة

كان أول من هاجر الى المدينة من المهاجرين أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ابن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، قدم على رسول الله ﷺ من أرض الحبشة ، فآذته قريش ، وبلغه إسلام ممن أسلم من الأنصار ، فخرج الى المدينة مهاجراً ٠

تقول أم سلمة « زوج النبي ﷺ بعد موت زوجها أبي سلمة ، واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة » :

لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة ، رحل لي بعيره ، ثم حملني عليه ، وحمل معي ابنه سلمة في حجري ، ثم خرج بي يقود بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، قاموا إليه ، فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام تتركك تسير بها في البلاد ؟! فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه ، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة ، فقالوا : لا والله ، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة الى المدينة ، قالت أم سلمة : ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني .

هكذا أخذوا إسلامهم وإيمانهم بالآلام والعذاب والصبر والدموع ، ويناله الناس اليوم بالوراثة ولا يكلفون أنفسهم جهداً بسيطاً ، ألا وهو جهد دراسته وتفهّمه !؟!

وتقول أم سلمة : فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي ، سَنَةً أو قريباً منها ، حتى مرَّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها(1) ؟

قالت : فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت ، ورد بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني ، فارتحلت على بعيري ، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله ..

فما أعظم الإيمان ، لقد بدل مخاوفها أمناً ، والشاقَّ عندها يسيراً ، والبعيد

---

(1) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٨١ .

قريباً ، وضعفها قوة وعزيمة ، وظلمة ليل الصحراء أمناً وطمأنينة .. وها هي تسير وحدها ، مهاجرة الى الله ، فارّة بدينها ، حتى إذا كانت بالتنعيم[1] لقيت عثمان ابن طلحة بن أبي طلحة .

تقول أم سلمة : فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ فقلت : أريد زوجي بالمدينة ، قال : أو ما معك أحد ؟ قالت : لا والله إلا الله وبُنيّ هذا . قال : والله مالك من مترك ، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري ، فَحَطّ عنه ، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحّى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح ، قام الى بعيري فقدّمه فرحّله ، ثم استأخر عني ، وقال : اركبي ، فاذا رَكِبْتُ واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه حتى ينزل بي حتى أقدمني المدينة .

فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بِقُبَاء قال عثمان بن طلحة لأم سلمة: زوجك في هذه القرية ، فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً الى مكة ، وكانت أم سلمة تقول : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

مُلاحظات

١ — لما خرجت أم سلمة كانت عازمة على أن تهاجر وحدها في الصحارى والجبال ، تحمل طفلها على بعيرها ، ولعلها قبل دخول الإيمان الى قلبها ، واحساسه بالله عز وجل ، كانت تخاف الانتقال من حيّ إلى حي وحدها ، أما بعد

---

(١) التنعيم : موضع بمكة ، على فرسخين منها ، وسمي بذلك لان جبلا عن يمينه يقال له نعيم ، وآخر عن شماله يقال له ناعم ، والوادي نعمان ، وبالتنعيم مساجد حول مسجد عائشة ، وسقايا على طريق المدينة ، منه يحرم المكيون بالعمرة .

ـ « معجم البلدان » ، ج : ٢ ، ص : ٤٩ .

إسلامها فهي مع الله قيوم السموات والأرض ، « أو ما معك أحد ؟ قالت : لا والله إلا الله وبُنَيَّ هذا » . لقد بدل الإسلام صفاتهم ومشاعرهم وحياتهم إلى الكمال، وأوجد الإنسان الرَّباني الذي تتلاشى رغباته عند رغبات الله وأوامره .

٢ ــ عثمان بن طلحة مشرك ، ولكن النجدة والشهامة كانت في روح العربي منذ جاهليته ، فبذور الخير موجودة في قلوب الكثيرين ، ومثل عثمان بن طلحة سيقوده عقله إلى الإسلام ، ولقد أسلم عثمان بن طلحة قبل فتح مكة ، وكان له في تاريخ الإسلام شأن ، فقد أسلم في هدنة الحديبية ، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد ، وقُتِل يوم أحد إخوتُه وأبوه وعمه وبيده مفاتيح الكعبة ، دفعها رسول الله ﷺ عام الفتح إلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة بن أبي عثمان . وقتل عثمان بن طلحة رحمه الله شهيداً في أول خلافة عمر بأجنادين .

* * *

وكان أول من قدم المدينة بعد أبي سلمة : عامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حشمة ، ثم عبد الله بن جحش مع أهله وأخيه ، فأغلقت داره لهجرة أصحاب الدار كلهم ، فقال عتبة بن ربيعة : أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل : هذا عمل محمد فَرَّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع بيننا .

وتتابع المهاجرون جماعات إلى المدينة ، ومنهم : عكاشة بن محصن ، وشجاع وعقبة ابنا وهب ، واربد بن حُمَيِّرة ، وثقف بن عمرو ، وسخبرة بن عبيدة ، ومن النساء : زينب بنت جحش ، وأم حبيب بنت جحش ، وجذامة بنت جندل ، وأم قيس بنت محصن ، وأم حبيبة بنت ثمامة ، وآمنة بنت رُقيش ، وسخبرة بنت تميم[1] ..

ثم هاجر حمزة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة ، وأبو مرثد كناز بن حصن، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وعتبة بن غزوان ، وعثمان بن عفان ..

(١) ابن هشام ، جـ : ٢ ، ص : ٨٣ .

هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

روى عليٌّ رضي الله عنه : ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكَّب قوسه ، وانتضى في يديه أسهماً ، واختصر عنزته (وهي الحربة الصغيرة علَّقها في خاصرته) ، ومضى قِبَل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أتى المقام فصلَّى ركعتين ، ثم وقف على الحَلَق (المجالس ، مجالس القوم وحلقاتهم) واحدة واحدة ، فقال : شاهت الوجوه ! لا يُرْغِم الله إلا هذه المعَاطِس ! من أراد أن تثكله أمُّه ، أو يُؤتَم ولده ، أو ترمَّل زوجته فليلحقني وراء هذا الوادي .
قال عليٌّ : فما تبعه أحد ، ثم مضى لوجهه .

ولما عزم عمر على الهجرة أخبر عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص ، واتفقوا على الصحبة على أن يجتمعوا في منازل بني غِفَار على عشرة أميال من مكة ، فمن تخلَّف عن الموعد تركوه ورحلوا ، فجاء عمر وعياش وحبس هشام في مكة وفتن عن دينه ، فسارا حتى وصلا قُباء ، فنزلا على رفاعة بن عبد المنذر ، ولبث عمر عنده حتى لحق به من أهله وقومه أخوه زيد بن الخطاب وعمرو وعبد الله ابنا سُراقة ، وخُنيس بن حُذافة السَّهمي (وكان صهره على ابنته حفصة ، فخلف عليها رسول الله ﷺ بعده) وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل ، وواقد بن عبد الله التيمي « حليف لهم » وآخرون ، ثم قدما المدينة .

عمر هاجر علناً ، وسيهاجر النبي سراً ، فهل عمر أجرأ من النبي وأقوى ؟

عمر لم يكن مستهدفاً في ذاته ، أما النبي ﷺ فهو مستهدف لاستهداف الرسالة كلها في شخصه . وقريش ما جعلت سبعين شاباً لقتل عمر ، لأن قتل عمر

---

(١) راجع لهجرة عمر العلنية « السيرة النبوية » هامش السيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٤٠ .

قتل فرد من الجماعة المؤمنة المسلمة ، قريش تطلب النبي وتريد قتله لقتل ووأد الرسالة ، ومحو الإسلام بمحو شخصه الكريم .

ويؤيد هذا معركة أحد ، لما قيل إن النبي قُتِل ، أوقف القرشيون الحرب ظناً منهم أنهم قضوا على الإسلام في أحد بقتل النبي . لذلك قال أبو سفيان : أعْلُ هبل ، أعْلُ هبل ، أي انتهى الإســلام ، وبقيت الوثنية دين قريش . وسؤال أبي سفيان لعمر بعد أحُد : أقتلنا محمداً ؟!؟ يُعْلِمُ القارىء أن همَّ قريش شخص النبي ﷺ .

ويؤيد هذا أيضاً هجرة صهيب الرومي بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة المنوّرة ، قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ، فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي ، أتخلّون سبيلي ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني جعلت لكم مالي ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب.

وهكذا تركت قريش صهيباً[1] يهاجر بعد مصادرة أمواله ، ولم تستهدفه في شخصــه .

وخلاصة القول استهدفت قريش النبي بذاته الشريفة للقضاء على الرسالة في مهدها[2] ، بينما لا تطمس الرسالة بقتل سواه ، بل تبقى في سيرها الطبيعي . والله تبارك وتعالى ما قبض النبي إلا بعد ان استكملت الرسالة في كل أبعادها :

---

(١) ابو يحيى صهيب بن سنان بن مالك ، يقال له الرومي لان الروم سبوه صغيرا ونشا عندهم ، اشتراه عبد الله بن جدعان فاعتقه ، ولما اراد الهجرة تبعه المشركون ، فاخرج مافي كنانته من سهام ، وقال : يا معشر قريش ، تعلمون أني من ارماكم ، ووالله لا تصلون إلي حتى ارميكم بكل سهم معي ، ثم اضربكم بسيفي مابقي في يدي منه شيء ، فان كنتم تريدون مالي دللتكم عليه ، قالوا : فدلنا على مالك ونخلي عنك ، فتعاهدوا على ذلك ، فدلهم عليه ، ولحق برسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : ربح البيع ابا يحيى ، وانزل الله عز وجل : « ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد » البقرة /٢٠٧ ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، توفي بالمدينة ودفن فيها سنة ٣٨ هـ وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ، « راجع أسد الغابة » ، ج : ٣ ، ص : ٣٦/٣٧ .

(٢) والنبي ﷺ مشرع ، وعمله تعليم لامته من بعده ، فاستخدام العقل وتعاطي الاسباب هو الاصل وهو عمل المشرع .

« اليــومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نِعْمَتي ورضيتُ لَكُمُ الإسلامَ ديناً » ، المائدة / ٤ ٠

وستكون أعمال قريش كلها أعمالاً طبيعية عادية في حياة من يدعو إلى الله ، إنها كالظلال على صفحات المياه ٠ فكما أن صورة الأشجار ــ مهما كانت ضخمة عظيمة ــ على وجه الأنهار لا تمنع جريانها ، كذلك أعمال من يحاول زعزعة الحق وهزيمته ، ولكن : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرُّسل ولا تستعجل لهم ، كأنَّهم يوم يرون ما يوعَدُون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار بلاغٌ فهل يُهلَكُ إلا القومُ الفاسِقون » الأحقاف / ٣٥ ٠ « فاصبروا إن العاقبــة للمتقين » هود / ٤٩ ٠



هجرة الرسول الأعظم
صلى الله عليه وسلم

✶ « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » .

« التوبة / ٤٠ »

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخلف أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن ، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق رضي الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة ، فيقول له ﷺ : لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه[1] .

وتنبهت قريش لخطر الموقف ، وأن زمامه قد أفلت من يدها حقاً وفعلاً ، لقد صار لرسول الله ﷺ شيعة وأصحاب من غير قريش ، وبغير بلد قريش ، إنهم هناك في يثرب ، ورأت قريش خروج المهاجرين إليها ، وعلمت أنهم قد نزلوا

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٨٩ . والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٦٩ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٧٠ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، ج : ١ ، ص : ٢٢٧ .

داراً ، وأصابوا بالأنصار منعة ، وما اجتمع المهاجرون والأنصار إلا لحماية الدعوة، وبناء الإسلام ولو كلفهم ذلك حياتهم • فأدركت قريش أنهم اجتمعوا لحربها ، وخروج النبي ﷺ إلى المدينة يعني اكتمال الأمر من قاعدته إلى قمة الهـرَم •

ودليل ادراك قريش خطورة الموقف ، وأن زمامه قد أفلت من يدها تنادي أبنائها للاجتماع بدار الندوة ، للتداول والتشاور فيما يصنعون في أمر محمد بن عبد الله حين خافوه •

في دار الندوة : الانتقال من الايذاء إلى الافناء

وفي دار الندوة[1] ، تمثل الشر في إبليس ، على شكل شيخ من أهل نجد ، اجتمع مع أشراف قريش • فمن بني عبد شمس : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، ومن بني نوفل بن عبد مناف : طعيمة بن عدي ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن عامر بن نوفل ، ومن بني عبد الدار بن قصي : النضر بن الحارث بن كلدة ، ومن بني أسد بن عبد العزّى : أبو البختري بن هشـام ، وزمعة بن الأسود بن المطلب ، وحكيم بن حزام ، ومن بني مخزوم أبو جهل بن هشام ، ومن بني سهم : نبيه ومنبه ابنا الحجّاج ، ومن بني جمح : أمية بن خلف •• وآخرون ممن لا يعد من قريش[2] •

لِمَ هذا الاجتماع على هذا المستوى من الأشراف والزعماء ؟!؟

الجواب من تساؤلاتهم في دار الندوة : إن هذا الرجل قد كان من أمره ماقد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجْمِعُوا فيه رأياً • إنّهم يشعرون اليوم أن محمداً ﷺ أصبح قادراً على الوثوب عليهم ، إنه اليوم نِدٌّ قوي يحسب حسابه ، فثلاث عشرة سنة من الصبر والتّصبر وتحمل

---

(١) وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي امرا إلا فيها •

(٢) الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٠ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧١ • والسيرة النبوية ، ج : ١ ، ص : ٣٥٤ ، وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٠ •

العذاب والاضطهاد والفتن ما ضاعت ، بل كانت بذوراً طيبة عميقة في النفوس المؤمنة ، أنبتت عندما آذن الله سبحانه ، قوةً وعزيمة ، هي اليوم توازي قوة قريش ، بل باتت قريش تخشاها ، وقد كانت زعيمة العرب الأولى بلا منازع .

وقالوا في دار الندوة : أجمعوا في محمد رأياً .. فتشاوروا ، وقدَّموا الحلول التالية :

١ — حبسه ﷺ في الحديد ، واغلاق الباب عليه حتى الموت . فالحل الأول سجنه ﷺ في سجن أحكم اغلاق بابه حتى الموت .

ونقضَ هذا الحل الشيخ النجدي بقوله : لا والله ، ما هذا لكم برأي ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم ، فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأي ، فانظروا في غيره . وقبلوا منه استبعاد هذا الحل .

٢ — نفيه ﷺ من أرض قريش ، واخراجه من بين أظهرهم « فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا منه أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت » .

فالحل الثاني نفيه ، وذلك بربطه على جمل وتسييره في الصحراء . ورد الرأي الثاني الشيخ النجدي أيضاً بقوله : لا والله ، ماهذا لكم برأي ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . دبِّروا فيه رأياً غير هذا . فكان الرأي الثالث من أبي جهل بن هشام .

٣ — قال أبو جهل : والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً

وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف ــ قوم النبي ﷺ ــ على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل ــ بالدية ــ فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي الذي لا أرى غيره . فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له . وسجل القرآن الكريم هذه الحادثة في الآية الكريمة :

«وإذْ يمكُرُ بِكَ الذينَ كَفروا ليثبِتوكَ أو يقتلوكَ أو يُخْرِجُوكَ ويمكرونَ ويمكُرُ اللهُ واللهُ خير الماكرين[1] » .

دبّرت قريش خطتها ، ورسمت طريقة أرادت تنفيذها ليلاً .. ولكن هيهات فلله تدبير فوق تدبيرهم ، ويدٌ فوق أيديهم .. ونزل جبريل الأمين بوحي من الله سبحانه يخبر النبي بما عملوا وبيتوا ، وأذن له بالهجرة . وقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه .

وقدّر النبي ﷺ موقف قريش ، وأخذ يدبّر أمره بخطة سريّة حرص ألا تتسرب إلى قريش ، وقدّر أن قريشاً سترصد أفواه الطرق ، وستبذل كل ما تستطيع من جهد إذا علمت بخروجه ، فإذا أعجزها العثور عليه ، وغلبت على أمرها واستسلمت لليأس حتى إذا استيقنت أنه قد فاتها إدراكه ، هدأت ثائرتها ، وكفت عن طلبه وتتبعه .

فلما كانت عتمة من الليل اجتمع من كل قبيلة شاب على باب بيت المصطفى ﷺ يرصدونه متى ينام ، ليثبوا عليه ﷺ ، فلما رأى مكانهم استعمل النبي الحكمة والعقل عندما خدع المتآمرين وأمر علياً كرم الله وجهه أن ينام على فراشه . قال ﷺ لعلي : « نَمْ على فراشي ، وتسج ببردي هذا الحضرمي

---

(١) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ٣٠ .

الأخضر ، فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » ، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام[1] •

كما أمر النبي علياً أن يرد ودائع وامانات الناس إليهم •

ونام علي كرم الله وجهه وهو مطمئن تماماً أن المشركين لن يصلوا إليه بسوء • كيف يخاف وقد أخبره من لا ينطق عن الهوى بأنهم لن يمسوه بمكروه ؟!؟ وكيف يخاف عليٌّ وقد طمأنه حبيبه ؟

نام عليٌّ في فراش رسول الله ﷺ مطمئناً غير وَجِل ، فالنبي استشف المستقبل بإذن الله وأخبره بما سيكون بأنهم لن يخلصوا إليه • ونقول هنا : كثيراً ما تنبّأ النبي بأشياء آتية مقبلة ، وتكون كما أخبر بها ﷺ • فلو لم يكن نبياً مرسلاً حقاً وصدقاً لما أقحم نفسه الشريفة بمثل هذه المواقف • فنبوءة واحدة يقولها ﷺ ويأتي الزمن بخلافها كافية لتشكيك المؤمنين والناس أجمعين بالنبوة كلها والوحي والرسالة من أسسها • ولكنه المصطفى — ﷺ — أتى الزمان بَعُدَ أمْ قرب ليثبت ما تنبّأ به كما وصف ، وكما أخبر ، مثل اخباره بموت كسرى يوم اغتياله بالذات ، وكاخباره بفتح مدائن كسرى والقصور البيض في الشام ، واخباره ووصفه بيت المقدس وقوافل قريش عند الاسراء ، واعلامه بفتح القسطنطينية ويدفن رجل صالح عند أسوارها وكان أبو أيوب الأنصاري ذلك الرجل الصالح •• والأمثلة كثيرة في كتب السيرة والحديث •

فعلي مطمئن ، والنبي من باب أولى في طمأنينة تامة ، إنه في أوج الأمن والأمان لأن الله معه ، يدبّر أمره ، ويعصمه من الناس • فلا اضطراب ولا وجل مما تكيده قريش •

اجتمع شباب قريش وفيهم أبو جهل بن هشام الذي قال وهم على باب بيت

---

(١) مروج الذهب ، ج : ٢ ، ص : ٢٨٥ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧٢ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٢ • وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩١ • والسيرة النبوية ، ج : ١ ، ص : ٣٥٥/٣٥٦•

المصطفى ساخراً مستهزئاً وقد ظن أن الأمر بات بيده ، واليوم يقضي على محمد وبالتالي على الدعوة كلها ، قال أبو جهل : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم فَجُعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بُعِثْتُم من بعد موتكم ، ثم جُعِلَت لكم نار تحرقون فيها[1] .

سمع النبي ﷺ قول أبي جهل ، فخرج عليه الصلاة والسلام وهو يتلو قوله تعالى : « يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم ، تنزيلَ العزيز الرحيم لتُنْذِرَ قوماً ما أنذِرَ آباؤهُم فهم غافلون ، لقد حَقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سَدّاً ومن خلفهم سَدّاً فأغشيناهم فهم لا يُبْصِرون » .

وقال ﷺ لأبي جهل رداً على قوله واستهزائه وسخريته : « أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم » . وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه ﷺ ، فلا يرونه ، وألقى الله عليهم جندياً من جنوده اسمه النوم « ولا يعلم جنود ربك إلا هو » جعلهم في سلاسل لا يستطيعون الحراك ، ومنعهم الابصار ، وأعماهم بدون عمى ، ومنع عنهم السمع من غير صمم .

وخرج رسول الله ﷺ بكل عزة وافتخار واعتزاز بالله ، وبمنتهى الطمأنينة بالله ، وجعل ينثر التراب على رؤوسهم ـ وهو يتلو الآيات الأولى من سورة يس ـ فلم يبق منهم رجل إلا ووضع النبي ﷺ على رأسه تراباً ، ليعلموا وتعلم قريش معهم أموراً ثلاثة :

١ ـ لقد خرج النبي الكريم وهو في غاية الهدوء والأمن ، لم يفر منهم ، ولم يهرب مسرعاً ، بل تمهَّل فهو مع حليف لا يغلب ، إنه مع الله تبارك وتعالى .

---

(١) قول ابي جهل في ص : ٣٥٦ من الجزء الاول في السيرة النبوية . وفي الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٦٩ .

٢ ـ حفنة التراب على الرؤوس مع كونها دليلاً عملياً حسيّاً على الهدوء النفسي عند رسول الله ، إلا أنها أيضاً تحقير لكفرهم وشركهم ، لقد عفّرت الرؤوس الوثنية المشركة ، فهذا ذل يقابله عز للنبي وكرامة ورفعة .

٣ ـ وهذا اثبات لقريش ـ وللعالم أجمع فيما بعد ـ أن الدعوة في حماية الله عز وجل ، رعاها في شخص المصطفى ﷺ ، وستكون لأصحابه الكرام جنات في الأردن والشام والعراق ، بل جنات بين المحيطين الأطلسي والهادي ، وسيصبحون أمراءها وملوكها ، وسيملكونها لينفقوها في سبيل الله .

وخرج النبي ﷺ إلى دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد أذن الله عز وجل له عند ذلك في الهجرة ، ليتخذه صاحباً في طريقه إلى معقل الإسلام الأول .

وكان أبو بكر يطمع بأن يكون صاحب النبي في هجرته منذ أن استأذنه في الهجرة ، وقال له ﷺ : لا تعجل ، لعل الله يجد لك صاحباً . فابتاع راحلتين ، فاحتبسهما في داره ، يعلفهما إعداداً لذلك ، وهذا فهم من أبي بكر عميق ، لتلميح رسول الله له بالأمر .

وأتى فتيان قريش الذين في باب بيت رسول الله آتٍ ممن لم يكن معهم ، فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمداً ، قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ماترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون مابكم ؟

لقد عرف الرجل خروج النبي من حال فتيان قريش ، فهم نيام ، وإنسان وضع على رؤوسهم التراب !! فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علي كرم الله وجهه من الفراش ، فقالوا :

لقد كان صدقنا الذي حدثنا[1] .

إلى غار ثور

هجرة النبي ﷺ إلى المدينة هجرة مؤكدة منذ بيعة العقبة الثانية ، فهي ــ نصاً وروحاً ــ تحمل معنى الهجرة ، فالأنصار سيحمون النبي ﷺ في ديارهم، وليس لهم من الأمر شيء في مكة ، وقول العباس واضح جَلِيّ : « إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه » .

وهجرة الصحابة كلهم تقريباً قبل رسول الله ﷺ ، تعني أيضاً أنه سيَّرهم أمامه ، وسيلحق بهم دون شك .

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار ، إما بكرة ، وإما عشية ، حتى اذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة ، والخروج من مكة من بين قومه ، أتانا رسول الله بالهاجرة ، في ساعة كان لا يأتي فيها ، فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة ، إلا لأمر حدث ، فلما دخل ، تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا ــ تقول ذلك السيدة عائشة ــ وأختي أسماء بنت أبي بكر ، فقال رسول الله ﷺ أخرج عني مَنْ عندك ، فقال : يا رسول الله ! إنما هما ابنتاي ، وماذاك ؟ فداك أبي وأمي !

---

(١) سؤال قد يتبادر الى الذهن : لماذا لم يقتحم رجال قريش دار النبي ﷺ منذ اول عتمة الليل ، وهم الذين جاؤوا لقتله . والاجابة : لقد هموا بالفعل بعمل هذا والولوج عليه ﷺ ، فاسمعهم الله عز وجل صياح امراة من الدار . فقال بعضهم لبعض : والله إنها للسبة في العرب ان يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم ، وهتكنا ستر حرمتنا . فاقاموا عند الباب وحول الدار .

فقال : إن الله قد أذِن لي في الخروج والهجرة • فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله • قال رسول الله ﷺ : الصحبة[1] •

الصحبة كلمة عظيمة فيها سر عظيم ، وصحبة الجسد ، صحبة جيدة فيها بركة وخير ، ولكن صحبة الروح إلى الروح هنا السر الأعظم ، إنها صحبة تَلَقٍّ وتَعَلُّم ، وصحبة إيمان ، وصحبة نور وعروج •• صحبة أبي بكر للنبي الكريم صحبة تلميذ لمعلّم ، وصحبة طالب لمطلوب •• فوقر في قلب الصديق نور وإيمان مالو وُزِّع على الخَلْقِ لوسعهم •

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ •

ثم قال أبو بكر رضي الله عنه : يانبي الله ، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا ، فاستأجرا عبد الله بن أرقط ، رجلاً من بني الدئل بن بكر ، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو ، وكان مشركاً ، استأجراه ليدلهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما[2] •

وهكذا لم يعلم بخروج رسول الله ﷺ إلا رجلان وامرأتان ، علي وأبو بكر ، وعائشة وأسماء •

وأخبر النبيُّ علياً بالهجرة ، وأمره أن يتخلّف بعده بمكة حتى يؤدي الودائع عن رسول الله ، الودائع التي كانت عنده ﷺ للناس ، فليس أحد بمكة عنده شيء يخشى عليه ، إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته •

---

(١) الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٥ • والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧٣ ، وابن هشام ، ج :٢ ، ص : ٩٣ ، والسيرة النبوية ، ج : ١ ، ص : ٣٥٨ • والوفا بأحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢٣٥ ، وعيون الاثر : ج : ٢ ، ص : ٨١ •

(٢) لأخبار الدليل عبد الله بن ارقط (أو أريقط) راجع : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص : ٨٥ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧٣ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٦ • وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٤ •• وضبط ابن سعد في طبقاته اسم الدليل : « عبد الله بن اريقط » ، ج : ١ ، ص : ٢٢٩ •

وتتساءل : هذه الودائع لمن وقد هاجر المسلمون كلهم من مكة إلى المدينة ؟

إنها ودائع قريش حتماً ، فكيف تضعها عند النبي ﷺ وهي التي تصر على الشرك والأوثان ، ومحاربة الإسلام ، فكيف تضع ودائعها عند نبي الإسلام ؟!؟

إن عمر الدعوة ثلاث عشرة سنة ، وهي مـدة التطاحن الفكري العميق والجذري • ومع ذلك بقيت قريش تضع ودائعها عند رسول الله ﷺ ، وهـذا دليل على معرفة قريش أمانة رسول الله وخلقه القويم ، وانها ـ اي الودائع ـ في حرز مكين من الأمانة بيد رسول الله • وكان من المفروض أن يسوق ذلك قريشاً لتصديق الرسالة ، ومحمد هو الأمين منذ أول شبابه • ولكنه عدم التوفيق في تحكيم العقل السليم لاستشفاف صدق الرسالة ، ولعلها المكابرة كما كانت عند أبي جهل ، فهو ـ وهو يموت في نهاية معركة بدر الكبرى ـ يعلم أن محمداً رسول الله ، ولكنه لا يقرّ لبني هاشم بنبوّة ، وهذا خذلان ، فإن لم تك نبياً ، فكن صِدّيقاً ، كن صحابياً جليلاً !!

وخرج النبي ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه من خوخة[1] لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار ثور[2] ، فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقول الناس فيهما في النهار ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من خبر • وأمر عامر بن فهيرة مولاه ، أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما يأتيهما إذا أمسى الغار ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام إذا أمست بما يصلحهما •

دخل النبي وصاحبه إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر رضي الله عنـه قبل رسول الله ﷺ يتلمّس الغار ، لينظر أفيه سَبُعٌ أو حيّة ، فهو يقي رسول الله

---

(١) الخوخة : الباب الصغير في البوابة الكبيرة ، يدخل الناس منه ويخرجون •

(٢) غار ثور في طريق المنحدر من مكة الى اليمن على مسير ساعتين ، في جبل عال ذي قمتين ، وهو في مرتقى صعب وعر شديد الانزلاق كثير المضايق والصخور ، يبذل الصاعد اليه جهده وقوته ويستعين بكل خبرته وحذقه حتى يصل الى الغار عند القمة ، فيجده كهفا ضيقا لا تزيد مساحته على مترين ونصف المتر رابضا تحت صخرة ضخمة تغشى جوفه ظلمة خفيفة • « صور من حياة الرسول ، ص : ٢٤٠ » •

بنفسه ، وما وصل الصِدِّيق إلى مرتبة الصديقيَّة إلا بمحبة رسول الله . هذه المحبة التي أنبتت ايماناً ونوراً وعشقاً لله في قلب أبي بكر ، فهو وما يملك للإسلام ونبي الإسلام ، أما تبرَّع بكل ماله ؟ فسأله ﷺ : ماذا أبقيت يا أبا بكر لأهلك ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله .

ودخل الصِدِّيق إلى الغار ، فجعل يتلمَّس بيديه ، فكلما رأى جحراً شَقَّ جزءاً من ثوبه ثم ألقمه الجحر ، حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، فبقي جحر فوضع عَقِبه[1] عليه . فأبو بكر يهمه سلامة النبي لتأمين سلامة الدعوة ، لذلك أثناء صعوده مع النبي إلى الغار ، جعل يمشي مرَّة أمامه ، ومرَّة عن يمينه ، ومرَّة عن شماله .

فقال له رسول الله ﷺ : ما هذا يا أبا بكر ؟ ما أعرف هذا مِنْ فعلك .

فقال : يا رسول الله أذكر الرَّصَد[2] فأكون أمامك ، وأذكر الطَّلَب فأكون خَلْفك ، ومن عن يمينك وعن يسارك ، لا آمن عليك .

قال أبو بكر : فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حَفيت رجلاه ، فلما رآه أبو بكر أنها قد حفيت حمله على كاهله وجعل يشتد به حتى أتى به الغار فأنزله . ثم قال : والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله ، فإن كان فيه شيء نزل بي قَبْلَك ، ففعل ولم يَرَ شيئاً ، فحمله وأدخله .

وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاع ، فخشي أبو بكر أن يخرج منهن شيء فيؤذي رسول الله ﷺ ، فألقمه قدمه ـ كما مرَّ معنا قبل قليل ـ فَجَعَلْن يضربنه ويلسعنه ـ الحيات والأفاعي ـ وجعلت دموعه تنحدر ، ورسول الله نائم في حجر أبي بكر ، فلم يتحرك أبو بكر لئلا يوقظ رسول الله .. ولكن ألم السم

---

(١) العَقِب : المراد هنا مؤخر القَدَم ، « الصحاح : ٤٤٣ » .

★ ولما تلمَّس ابو بكر الغار دميت يده بحجر ، فنظر اليها وقال :

إن أنت الا اصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لاقيت .

راجع « البداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٨٠ » .

(٢) الرصد : الرقباء والعيون .

جعل دموعه تنحدر فسقطت الدموع على وجه المصطفى الشريف ، فاستيقظ ، وقال : مالك يا أبا بكر ؟ قال : لُدِغْتُ ، فداك أبي وأمي . فتفل ﷺ مكان اللّسع ، فذهب الألم والورم[1] .

ولما أصبحا رأى رسول الله ﷺ وضع أبي بكر ، فسأله عن ثوبه ، فأخبر بالذي صنع ، فرفع ﷺ يديه وقال : اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة ، فأوحى الله تعالى إليه : قد استجبت لك[2] .

* * *

جُنُونُ قُرَيْش

جُنَّ جنون قريش ، وطار صواب أبي جهل ومن معه ، وأحدقوا بعلي كرم الله وجهه يتجاذبونه وينهرونه ويسألونه عن محمد ، أين ذهب ؟! وأين اختفى ؟! وعلي يجيب بهدوء : لا أدري ! أمرتموه بالخروج فخرج .

ثم ادخلوه كرم الله وجهه إلى المسجد فحبسوه هناك ، وحاولوا بكل وسيلة أن يعرفوا منه مكان النبي ﷺ ، وعبثاً حاولوا . فلما استيأسوا منه أطلقوه ، فقام بالأبطح ينادي : « من كان له عند رسول الله ﷺ وديعة فليأت تُؤَدَّ إليه أمانته » .

وذهب نفر من قريش على رأسهم أبو جهل بن هشام إلى بيت أبي بكر ، فهم يعلمون أنه لم يبق من المسلمين في مكة إلا علي وأبو بكر ، فعلي بين أيديهم فليسألوا عن أبي بكر .

---

(١) كتاب « السيرة النبوية ، والآثار المحمدية » هامش السيرة الحلبية ، الجزء الاول ، ص : ٣٦٥ .

(٢) الوفا في احوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢٣٧ . وسيرة ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٣ ، يقول سيدنا عمر بن الخطاب عن هذه الليلة في الغار : « والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من آل عمر » وفي رواية : « خير مما أعطي عمر وآل عمر » . وراجع حلية الاولياء ، ج : ١ ، ص : ٣٣ .

تقول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي خبيثا ؟!

فكان رد أسماء ردّ المسلمة القوية العزيزة ، لا جواب الجبان الخائف المتمسكن في وجه الكفر والطغيان ، قالت موجهة الجواب إلى أبي جهل : لاأدري والله يا أبي !؟! فكان جواب أبي جهل جواب من لا جواب عنده ، جواب من أحرج بعودة الشتيمة إليه ، فقد رفع يده ، ولطم خد أسماء لطمة طرح منها قِرْطَها[1] .

ولنتصوّر حال قريش ، وخطورة الموقف ، يكفي القول إن مدينة بأسرها هي مكة ، أخذت تطارد وتبحث وتقاوم رجلاً واحداً هو المصطفى ﷺ ، وقد أجمعت على قتله والخلاص منه بأية وسيلة كانت .

فاقتفوا أثر الرسول الكريم ، وأخذوا معهم خبراء مختصين في فن القيافة ، في تتبع الأثر على الرمال ، حتى بلغوا الجبل ، ووصلوا باب غار ثور .

وصلوا باب الغار ، والنبي وصاحبه فيه ، النبي مطمئن برعاية الله ، يحوطه بعنايته ، وأن قريشاً لن تنال منه منالاً مهما دبّرت وكادت ، ومهما استعانت بما لها من الخبرة والقوة والمكانة ، فلما وصل فتيان قريش إلى الغار ، وسمع أبو بكر دبيب أقدامهم إزاءه ، اشتد خوفه على حياة الرسول الأعظم ، حتى بكى ، وقال :

---

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٥ ، عيون الاثر ، ج : ٢ ، ص : ١٨٨ ، السيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٧٢ ، وتقول اسماء ايضا : لما خرج رسول الله ﷺ وخرج ابي معه ، احتمل ابي ماله كله ، خمسة آلاف درهم او ستة الاف ، فدخل علينا جدي ابو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال : والله إني لاراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت اسماء : كلا يا ابت ! إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا ، قالت : فاخذت أحجارا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان ابي يضع ماله فيه ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم اخذت بيده ، فقلت : يا ابت ، ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه ، فقال : لا باس اذا كان ترك لكم هذا فقد احسن ، وفي هذا بلاغ لكم . ولا والله ماترك لنا شيئا ، ولكني اردت ان اسكن الشيخ بذلك .
« راجع : البداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٧٩ » .

يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا[1] ، فهدّأ رسول الله من روع أبي بكر ، وقال له : لا تحزن إن الله معنا ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ وسجلت الآية الكريمة هذه الصورة أروع تسجيل :

« إلاَّ تَنْصُرُوهُ فقد نَصَرَهُ اللهُ إذ أخْرَجَهُ الذينَ كفروا ثانِيَ اثنينِ إذ هما في الغَارِ إذ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ انَّ اللهَ مَعَنَا ، فأنزلَ اللهُ سكينتَهُ عليهِ وأيَّدهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ اللهِ هي العُلْيَا واللهُ عزيزٌ حكيم[2] » .

انقطع الأثر ، ووقف القائف[3] حائراً تائهاً ليقول : ههنا انقطع الأثر ، ولا أدري أخذ يميناً أو شمالاً أم صعد الجبل .

* * *

مُعْجِزَاتٌ ثَلَاث

١ ـ نبتت شجرة تسمى « الراءة » ، مثل قامة الإنسان ، ولها خيطان وزهر أبيض كالريش لخفته ولينه ، يشبه القطن ، فحجبت عن الغار أعين الكفار .

فوقع في نفس فتيان قريش ، لو دخل محمد من ههنا لسقط زهر الشجرة الخفيف اللّيّن .

٢ ـ وبعث الله سبحانه عنكبوتاً فنسجت[4] خيوطها في فم الغار ، فكانت تلك الخيوط الضعيفة الواهية أمتن من الأسلاك الشائكة بإذن الله ، لقد كانت الخيوط الواهية أقوى من القلاع والسدود بأمر الله ومشيئته عز وجل .

---

(١) وبال احد فتيان قريش قرب فم الغار في أصل شجرة ، وكاد رذاذ البول يصيب ظاهر قدم ابي بكر ، السيرة الحلبية ج : ١ ، ص : ٣٦١ . ويقال ان القائف هو الذي بال . كما بال امية بن خلف ايضا كما سيمر بعد قليل .

(٢) سورة التوبة ، الآية الكريمة : ٤٠ .

(٣) القائف : الذي يعرف الآثار ، « مختار الصحاح ص : ٥٥٦ » .

(٤) العنكبوت : الغالب عليها التانيث ، وجمعها (عناكب) ، « مختار الصحاح : ٤٤٨ » .

وكأن كلمات كتبت على الغار ، لا تراها عيون الرأس ، ولكنها تلمس من الواقع ، وتُقرأ بعين البصيرة ، كتبتها خيطان العنكبوت على مدخل الغار ، وهي « ممنوع الدخول » ، وهيهات لقوة مهما بلغت أن تخرق هذا الأمر ، فمشيئة الله ألا يدخلوا ، فلن يدخلوا .

٣ ـ وأرسل الله حمامتين وحشيتين باضتا في مقدمة الغار .

قال أحد القرشيين : ادخلوا الغار .

فأجابه أمية بن خلف : وما أربكم ـ أي حاجتكم ـ إلى الغار ، إن فيه لعنكبوتاً من ميلاد محمد ، ثم جاء فبال ، فقال أبو بكر رضي الله عنه للنبي الكريم: إن هذا الرجل ليرانا ، وكان مواجهته ، فقال النبي ﷺ : كلا ، إن ثلاثة من الملائكة تسترنا[1] .

وقال القرشيون : لو دخل الغار لكسر البيض ونسج العنكبوت .

وجاء في بعض السِّيَر ، كما ذكر ذلك صاحب « السيرة النبوية ، والآثار المحمدية[2] » ، أن أبا بكر رضي الله عنه لما قال للنبي : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا ، قال له النبي ﷺ : لو جاؤونا من ههنا ـ أي من فم الغار ـ لذهبنا من ههنا ، فنظر الصدِّيق رضي الله عنه إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر ، وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه .

وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة الإلهية العظيمة ، ولا بمستبعد بالنسبة لمعجزاته ﷺ[3] ، فقد شقَّ الله لموسى البحر بعصا ، وهو الذي جعل النار برداً وسلاماً على ابراهيم ، وهو الذي أخرج ناقة صالح من الصخر ، وهو الذي جعل عيسى يتكلم في المهد ، وانزل عليه مائدة من السماء .. فالله الذي أكرم أنبياءه

---

(١) السيرة الحلبية ، هامشها ص : ٣٦١/٣٦٢ . وفي الجزء الاول .

(٢) هامش السيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٦٤ .

(٣) يقول صاحب « السيرة النبوية والآثار المحمدية » في ج : ١ ، ص : ٣٦٤ : « وان كان الذي ذكره ما ذكر له اسنادا متصلا ، لكن حسن الظن بالائمة يقتضي أنهم لا يذكرون مثل ذلك بتوقيف » .

السابقين بمعجزاتهم التي بهرت العقول ، مازال هو الله لا يتبدل ولا يتغيَّر ، فهو قادر على تحقيق معجزة لرسوله الكريم بخرق الصخر واخراجه مع صاحبه من الطرف الآخر للغار .

* * *

في غار ثور

وبقي النبي ﷺ وأبو بكر في الغار ثلاث ليال ، وجعلت قريش في طلبه مائة ناقة لمن يردّه عليهم .

وكان عبد الله بن أبي بكر يقيم في قريش نهاره ، يسمع مايأتمرون ومايقولون في شأن رسول الله وأبي بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسَى فيخبرهما الخبر ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر ، فأحلبا وذبحا ، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة ، أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم ، حتى يعفى عليه ، أي يمحو أثر أقدامه[1] .

من يتّهم الإسلام بالتواكل وتعطيل العقل والاتيان بالأسباب ، ومن يفهم من المسلمين أن التوكل تواكل ، فلينظر في الحادثة السابقة . لعلّه يعلم أن كل خطوة في الإسلام خطوة مدروسة ، والعقل فيها غير معطّل ، بل منتهى التفكير والتخطيط ، وها هو عبد الله بن أبي بكر يأتي ليلاً إلى الغار بأخبار قريش ، وعند عودته إلى مكة صباحاً تتبعه أرجل عشرات الخراف والنّعاج ، لتمحو أثر نعليه . أليس هذا منتهى الحكمة والعقل ..؟! والتوكّل في الإسلام ، فوق هذا كله ، اعتماد على الله سبحانه ، فهو مسبّب الاسباب .

وبعد أن يئست قريش من وجود النبي ﷺ بمكة ، بعد جهد دائب ، وبحث

(١) لتقصي اخبار قريش راجع الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٦ .

دقيق ، وفلّ عزمها الاخفاق ، فكفّت عن البحث ، وأرسلت بعض فنيانها الى طريق المدينة ، وأذاعت في أهل السواحل أن من يأتيها بمحمد أسيراً أو قتيلاً فله مائة ناقة .

ولما انقضت الليالي الثلاث ، وسكن عنهما الناس ، بدأت رحلة رعاها الله إلى المدينة .

وجاء دليل الطريق عبد الله بن أرقط بالبعيرين ، وببعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما ـ بطعامهما ـ ، ونسيت أن تجعل لهما عصاماً ـ الحبل الذي يُشَدّ على فم المزادة ـ فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السُّفْرة ، فإذا ليس لها عصام ، فحلّت نطاقها[1] ، فجعلته عصاماً ثم علقتها به ، فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر « ذات النطاقين » لذلك[2] .

وقدّم أبو بكر لرسول الله ﷺ أفضل الراحلتين ، ثم قال : اركب فداك أبي وأمي . فقال ﷺ : لا ، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها بـه ؟ قال أبو بكر رضي الله عنه : كذا وكذا . قال ﷺ : قد أخذتها بـه ، قال أبو بكر : هي لك يا رسول الله ، فركبها ، وانطلقا ، ومعهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وهو مسلم إسلامه حسن ، ليخدمهما في الطريق ، والدليل عبد الله بن أرقط وهو مشرك .

لماذا لم يقبل رسول الله ﷺ الناقة من أبي بكر إلا بثمنها ، علماً أن أبا بكر أنفق على رسول الله من ماله ما هو أكثر من هذا بكثير وقبل ، وقال ﷺ : ليس من أحد أمَنّ عليّ في أهل ومال من أبي بكر ؟

قال أهل العلم في اجابتهم عن هذا السؤال قولاً جميلاً مقنعاً :

لم يقبل النبي ﷺ الناقة من أبي بكر في الهجرة ، لتكون هجرته ﷺ إلى

---

(١) النطاق : شقة من ملابس النساء ، « مختار الصحاح ، ص : ٦٦٦ » .

(٢) الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٩ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧٣ ، وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٤ والسيرة النبوية ، ج : ١ ، ص : ٣٦٠ .

المدينة بنفسه وماله ، رغبة منه عليه الصلاة والسلام في استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتم أحوالهما[1] .

تساؤل آخر : الدليل عبد الله بن أرقط مشرك ، وهو يعلم أن قريشاً جعلت مائة ناقة في رسول الله ، هو يعلم ذلك قطعاً لأنه مكث بين القرشيين ثلاثة أيام ، وهي المدة التي بقي فيها رسول الله ﷺ مستخفياً في الغار ، فلماذا لم يخبر الدليلُ ابن الأرقط قريشاً بمكان تواجد النبي ، ليكسب أضعاف أجره بأيسر السُبُل ، ليكسب مائة ناقة ؟!؟

لا بد من صداقة شخصية كانت بين أبي بكر وعبد الله بن أرقط ، منعته من ذلك ، فإن لم نجد دليلاً صريحاً يدل على هذه الصداقة من خلال كتب السيرة والتاريخ ، يمكن التأكيد على أن الخيانة سُبَّة كبيرة عند العرب لا يرتضيها منهم أحد ولو كان على وثنيته وشركه . ومكان النبي ﷺ وأبي بكر بالنسبة للدليل أمانة ، ويكره العربي ويمقت الخيانة في طبعه .

وهذا يشبه إلى حد حماية بعض المشركين للنبي ﷺ ، فاستجارة النبي بالمطعم بن عدي وهو مشرك وقبول المطعم ذلك ، ونزوله مع أولاده وأقربائه بكامل سلاحهم إلى الكعبة لحماية النبي ، فيها صفة طيبة كانت في العربي منذ جاهليته ، ألا وهي « النجدة » فلا يضام المستجير به .

الـــوداع

انطلق الركب باسم الله ، وتحت رعاية الله ، حين أرخى الليل سدوله ، وكان القمر هلالاً في مستهل ربيع الأول ، فلم يلبث أن اختفى بُعيد الغروب ، وحين

(١) ابن هشام ، جـ : ٢ ، ص : ٩٥ . والناقة التي اشتراها النبي ﷺ كانت تسمى « الجدعاء » وهي « العضباء » كما جاء بابن هشام ، ويذكر صاحب « صور من حياة الرسول » أن اسمها « القصواء » راجع صفحة : ٣٥٣ من الكتاب المذكور . وهي كذلك في البداية والنهاية ، جـ : ٣ ، ص : ١٨٨ ، وذكر أن النبي ﷺ اشتراها بثلاثمائة درهم .

أخذ الركب وجهته الى المدينة نظر رسول الله ﷺ إلى مكة ، نظرة وداع حارة ، ثم قال ﷺ :

« إني لأخرَجُ منك ، وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله الى الله وأكرمها على الله تعالى ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ماخرجت منك[1] » . وقال ﷺ :

« اللهم إنك تعلم أنهم أخرجوني من أحب البلاد إليّ ، فأسكنّي أحب البلاد إليك » .

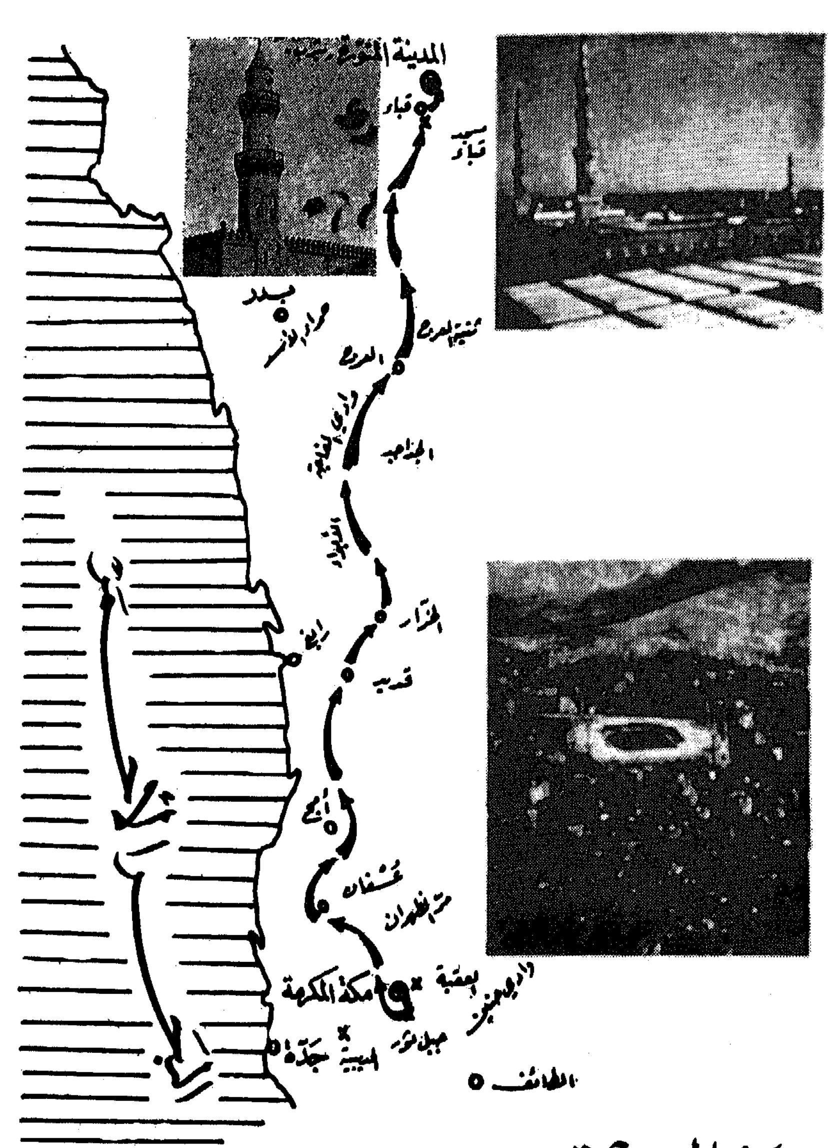
إنها كلمات وداع .. وكلمات دعاء يقطر حباً وحناناً إلى الوطن ، ويفيض حسرة وأسى على فراقه .

ركبٌ يمضي على بركة الله وبعنايته

روى البخاري بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه قال : أخذ علينا بالرَّصد ، فخرجنا ليلاً ، فأحْثَثْنا — أسرعنا — ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة ، ثم رُفِعَت لنا — ظهرت لنا — صخرة ، فأتيناها ولها شيء من الظل ، ففرشت لرسول الله فروة معي ، ثم اضطجع عليها ﷺ ، فانطلقت أنْفُضُ — أبحث وأتقصّى — ما حولها ، فإذا أنا براعٍ قد أقبل في غُنَيْمة — غنم قليلة — يريد من الصخرة مثل الذي أردنا . فسألته : لمن أنتَ ياغلام ؟ قال : أنا لفلان ، فقلت له : هل في غنمك من لبن ؟ قال : نعم ، قلت له : هل أنت حالبه ؟ قال : نعم، فأخذ شاة من غنيمه ، فقلت له : انْفُض الضَّرْع ، فحلب كُثْبَةَ — قليلاً — من لبن، ومعي إدَاوَة « سقاء للماء » من ماء عليها خِرْقة قد رَأْتُها « شددتها بها وربطتها عليها » لرسول الله ﷺ ، فصببت على اللبن حتى برد أسفله ، ثم أتيت به النبي ﷺ فقلت : اشرب يارسول الله ، فشرب ﷺ حتى رضيت ، ثم ارتحلنا والطلب في أثرنا .

---

(١) عيون الأثر ، جـ : ٢ ، ص : ١٨٢ ، و « صور من حياة الرسول » ص : ٢٤٦ ، ولذلك ، جاء في فتوح البلدان للبلاذري ، صفحة ٢٥ ، دعاء للنبي ﷺ يطلب فيه من الله عز وجل أن يحبب اليه المدينة : « اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنا مكة ، وبارك لنا في مدها وصاعها » .



مُصَوَّرُ الهجرة

الطريق الذي سلكه الرسول الأعظم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

سُرَاقة بن مَالك بن جُعْشُم المدلجي

جعلت قريش مائة ناقة لمن يرد النبي ﷺ عليهم ، وبينما سراقة بن مالك بن جعشم جالس في نادي قومه ، إذ أقبل رجل من القوم حتى وقف عليهم ، فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مرّوا عليّ آنفاً ، إني لأراهم محمداً وأصحابه . فأومأ إليه سراقة بعينه أن اسكت ، وقال سراقة : إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم ، قال الرجل : لعله ، ثم سكت .

يقول سراقة : ثم مكثت قليلاً ، ثم قمت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفرسي ، فقيد لي إلى بطن الوادي ، وأمرت بسلاحي ، فأخرج لي من آخر حجرتي ، ثم أخذت قداحي التي استقسم بها ، ثم انطلقت ، فلبست درعي ، ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره « لا يضره » وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ مائة الناقة .

قال سراقة : فركبت على أثره ، فبينما فرسي يشتد بي عثر بي ، فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره « لا يضره » ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فبينما فرسي يشتد بي ، عثر بي ، فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره « لا يضره » فأبيت إلا أن أتبعه فركبت في أثره ، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي ، فذهبت يداه في الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخان كالاعصار ، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنع مني وأنّه ظاهر[1] .

يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه[2] : فارتحلنا والقوم يطلبوننا ، فلم

(١) لقصة سراقة راجع السيرة النبوية ، ج : ١ ، ص : ٣٧٢ ـ ٣٧٥ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢، ص : ٧٤ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٨٥ ، وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٦ ، والوفا باحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢٤٠ ، وعيون الاثر ، ج : ٢ ، ص : ١٨٤ .

(٢) « اسد الغابة في معرفة الصحابة » ، الجزء الثاني ، صفحة : ٣٣١ وما بعدها ، طبعة « دار الشعب » . وراجع أيضا : « الكامل في التاريخ » الجزء الثاني ، الصفحة : ٧٤ ، طبعة عام ١٣٤٩ هـ .

يدركنا إلا سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي ، على فرس له ، فقلت : يا رسول الله ، هذا الطلب قد لحقنا ، قال : لا تحزن ، إن الله معنا ، حتى إذا دنا منا قدر رمح أو رمحين ، قلت يارسول الله : هذا الطلب قد لحقنا ، وبكيت . قال : لِمَ تبكي ؟ قال الصدِّيق : والله ما أبكي على نفسي ، ولكني أبكي عليك ، قال الصدِّيق رضي الله عنه : فدعا عليه فقال : اللَّهم اكفناه بما شئت ، فساخت فرسه إلى بطنها في أرض صلد ، ووثب عنها ، وقال : يامحمد ، قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه . فوالله لأغيبنَّ على من ورائي من الطلب ، فدعا رسول الله ﷺ ، فأطلق ، وتكرَّر سقوطه عن فرسه ثلاث مرات[1] .. وفي الأخيرة قال له رسول الله : « كيف بك اذا لبست سواري كسرى ومنطقته وتاجه[2] » . قال سراقة : كسرى بن هرمز !!؟! قال النبي : نعم . فقال سراقة : اكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك .. لقد أدرك سراقة أن محمداً نبي ، ولا بد منتصر ، فأراد طلب الأمان منه عند ظهوره .

فكتب له الصدِّيق كتاباً على عَظْم ، أو في رقعة .. ثم ألقاه له ، فجعله في كنانته ، وعرض على النبي ﷺ وعلى أبي بكر رضي الله عنه الزاد والمتاع ، فلم يقبلا شيئاً منه وقالا : لا حاجة بنا الى زادك وطعامك ، ولكن عَمِّ عنا الطلب ، فعاد سراقة لا يلقاه أحد يريد الطلب إلا قال : كُفيتم ، ما ههنا ، ولا يلقى أحداً إلا ردَّه .

وأسلم سراقة بعد فراغ النبي ﷺ من حُنَين والطائف .. ودخل في كتيبة من خيل الأنصار باتجاه مكان رسول الله ، فجعلوا يقرعونه بالرماح ويقولون : إليك ماذا تريد ؟

قال سراقة : فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته ، فرفعت يدي بالكتاب ، ثم قلت : يارسول الله ، هذا كتابك ، أنا سراقة بن جعشم ، فقال رسول الله ﷺ : يوم وفاء وبر ، ادنه ، قال سراقة : فدنوت منه ، فأسلمت .

---

(١) راجع هامش رقم : ١ في الصفحة السابقة .

(٢) رواه ابن عيينة عن أبي موسى عن الحسن رضي الله عنه .

ولما أتت عمر رضي الله عنه غنائم المدائن والجبهة الفارسية ، وإذا بها تاج كسرى ومنطقته وسواراه ، فدعا سراقة وألبسه اياهما ، وقال له عمر : ارفع يديك وقل : الله أكبر .. الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، الذي كان يقول : أنا رب الناس ، وألبسهما سراقة رجلاً أعرابياً من بني مدلج ، ورفع عمر بهـا صوته[1] ، تحقيقاً لوعد الله ، ووفاء بعهد رسول الله ﷺ .

لقد تحققت نبوءة رسول الله ﷺ ، التي قالها وهو في أشد ساعات الحرج ، عندما كان مطارداً مطلوباً من قومه . ومن كان من العرب يتصوّر أن سراقـة العربي البدوي ، الذي لا يجول بخاطره أن تواتيه لحظة في حياته ، يستطيع فيها أن يقترب من ايوان كسرى ، يلبس سواريه ومنطقته ، ولكن لم العجب ؟! إنه الإسلام به عزّ العرب ، وإنه لمحمد بن عبد الله به سجل التاريخ فخرهم ومجدهم .

حَدِيثُ أُمّ مَعْبَد

« معجزة أخرى لرسول الله ﷺ[2] » :

الركب يسير ، ويتحمّل المشاق ، وهو يعلم بأنّ الله لن يجري لهم الأمور إلا بخير ، وكلما أرهقهم السير نزلوا منزلاً فاستراحوا ، وتلمسوا من الحيّ المقيمين عند منزلهم بعض الطعام أو الشراب ، حتى مرّوا في طريقهم بأم مَعْبَد الخزاعية[3] ، وهي أعرابية كريمة ، كانت تجلس أمام خيمتها مجلس الرجال ، فتُطْعِمُ وتسقي من يمر بها من السيّارة . فسألوها تمراً أو لحماً يشترون منه ، فلم يصيبوا عندها شيئاً ، وأبدت أسفها قائلة : والله لو كان عنـدنا شيء

---

(١) « الكامل في التاريخ » ، ج : ٢ ، ص : ١٢٢/١٢٣ .

(٢) حديث أم معبد في « البداية والنهاية » ، ج : ٣ ، ص : ١٩٠ .

(٣) واسمها : عاتكة بنت خالد بن منقذ بن ربيعة ، خزاعية كعبية ، واصبحت صحابية فيما بعد بعد ما راته من رسول الله ﷺ ، وفي شرح السنة للبغوي : هاجرت هي وزوجها واسلم اخوها ايضا حبيش واستشهد يوم الفتح ، وكان اهلها يؤرخون بيوم نزول الرجل المبارك ، « هامش السيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٧١ » .

ما أعوزكم القِرَى ، وما كنتم إذن بحاجة إلى أن تسألوا شيئاً ، أو تدفعوا شيئاً ، لقد كانت السَّنَةُ مجدبة ، والبادية في قحط شديد .

فنظر رسول الله ﷺ في كِسْر الخيمة فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ، قالت : هذه شاة خَلَّفها الجهد ، والضعف والاعياء ، عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت : هي أجهد من ذلك ، قال : أتأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : نعم .. إن رأيت بها حَلَباً .

فدعا ﷺ بالشاة ، فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله وقال : اللهم بارك لها في شاتها ، فتَفَاجَّت[1] ودرَّت واجترَّت ، فدعا بإناء يُرْبِض الرَّهط[2] ، فحلب فيه ثجًّا[3] حتى غلبه الثمال[4] ، فسقاها ــ سقى أمَّ معبد ــ فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رَوَوْا ، وشرب ﷺ آخرهم وقال : ساقي القوم آخِرهم . ثم حلب فيه ثانياً عَوْداً على بَدْء حتى امتلأ الإناء ، ثم غادره عندها ، وبايعها وارتحلوا عنها .

وما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً .. فلما رأى اللبن عجب وقال : من أين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاةُ عازِبة[5] ولا حَلُوبة في البيت ؟!؟

قالت : لا والله ! إلا أنه مَرَّ بنا رجل مبارك ، كان من حديثه كيت وكيت .

قال : والله إني لأراه صاحب قريش الذي يُطلب ، صِفِيه لي أم معبد .

قالت :

---

(١) فتحت ما بين أرجلها وورت باللبن .

(٢) يشبع الجماعة .

(٣) لبنا غزيراء وبقيت تدر بغزارة حتى عام الرمادة أيام خلافة عمر رضي الله عنه .

(٤) الثمال : الرغوة .

(٥) غائبة عن البيت .

رأيت رجلاً ظاهرَ الوضاءة، أبلج الوجه[1]، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة[2]، ولم تزر بـه صعلة[3] ، وسيماً قسيماً[4] ، في عينيـه دعج[5] ، وفي اشفاره وطف[5] ، وفي عنقه سطع[5] ، وفي صوته صحل[5] ، وفي لحيتـه كثاثة ، أزج أقرن[6] ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، فهو أجمـل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم وأجملهم من قريب ، حلو المنطق ، فصـل لا نزر ولا هزر[7] ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدّرن ربعة ، لا يأس من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم ندراً ، له رفقاء يحفون به ، إن قال انصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا الى أمره ، محفود محشود لا عابس ولا مفند .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت بأن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

ومرّ بأم معبد فتيان قريش ، فسألوها عن محمد ، فتعاجمت عليهم ، وقالت لهم : إنكم تسألون عن شيء ماسمعت به قبل عامي هذا .

ذكاء أبي بكر الصديق

كان أبو بكر رضي الله عنه يكثر الأسفار للتجارة ، فكان معروفاً عند سكان الساحل حيث تمر القوافل ، فكان إذا سأله أحد عن رفيقه في الطريق ، يجيب بقوله : هادٍ يهديني السبيل ، ولا يتكلم إلا ويوري في كلامه .

---

(١) أبلج الوجه : مشرق الوجه .

(٢) الثجلة : عظم البطن والاسترخاء في اسفله .

(٣) لم يعبه صغر في الراس ، الصعلة : صغر الراس .

(٤) القسيم : الحسن .

(٥) الدعج : سواد العين ، والوطف : كثير شعر العينين والحاجبين ، والسطع : الطول ، والصحل : البحـة .

(٦) أزج أقرن : دقة في الحاجبين مع اقترانهما .

(٧) لا نزر ولا هزر : النزر القليل .

مسجد قباء

وكان الرسول الأعظم يقول له : ألْه الناس ، أي أشغل الناس عني ، أي تكفَّل عني بالجواب لمن يسأل عني ، فإنه لا ينبغي لنبي أن يكذب ولو صورة كالتورية .

فكان جواب الصدِّيق الذكي ينقذ الموقف .

وقبل وصول الركب إلى المدينة رأى النبي ﷺ الزبير بن العوام في ركب من المسلمين ، في طريق عودتهم من تجارة لهم في الشام فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثيابَ بياض .

الرَكبُ المبارك في قُبَاء

وفي ١٢ ربيع الأول حين اشتد الضحاء ، وكادت الشمس تعتدل ، وصل الركب المبارك قُبَاء[1] ، وقدم على بني عمرو بن عوف ، وكان الأنصار لما سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وانتظروا قدومه ، يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر المدينة ينتظرون رسول الله ﷺ ، فلا يبرحون حتى تغلبهم الشمس على الظلال ، فإذا لم يجدوا ظلاً دخلوا المدينة ، حتى إذا كان اليوم الذي قدم رسول الله ﷺ جلسوا كما كانوا يجلسون حتى إذا لم يبق ظل دخلوا بيوتهم .

فقدم رسول الله ﷺ ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، قد رأى ماكان يصنع المسلمون ، وأنهم ينتظرون قدوم النبي عليهم ، فصرخ بأعلى صوته : [يابني قيلة[2] ، هذا جَدُّكم قد جاء] .

قال بعض الأنصار : فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سِنِّه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل

---

(١) وصل ﷺ في ١٢ ربيع الاول للسنة الرابعة عشرة من البعثة ، الموافق ١٨ من « تموز » يولية سنة ٦٦٢ للميلاد . يقول الكلبي : « خرج النبي ﷺ من الغار يوم الاثنين اول يوم من ربيع الاول ، ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتي عشرة منه » .

(٢) قيلة : جدَّة الانصار ينسبون إليها . وجَدُّكم : سعدكم وحظكم ، غناكم وعظمتكم .

ذلك ، وازدحم الناس على رسول الله ﷺ وما يعرفونه من أبي بكر رضي الله عنه، حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ ، فقام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك.

أقام النبي الكريم في قُبَاء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس ، وأسَّس مسجده ، وهو أول مسجد بُني في الإسلام .

روى الطبراني عن الشَّمُوس بنت النعمان ، قالت : نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم فنزل وأسس المسجد ـ مسجد قُبَاء ـ فرأيته يأخذ الحجر والصخرة حتى يُصْهِرَه الحجر[1] ، فيأتي الرجل من أصحابه فيقول : يارسول الله ، بأبي أنت وأمي تعطني أكفك ، فيقول : لا خذ مثله حتى أسَّسه .

ولما أراد النبي الكريم دخول المدينة ، فرح أهلها بقدومه ، وأضاء منها كل شيء . يقول أنس رضي الله عنه : شهدت يوم دخول رسول الله ﷺ المدينة ، فلم أرَ أحسن منه ولا أضوأ[2] .

وفي البخاري عن البراء بن عازب قال : مارأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ .

لقد ازدانت المدينة ، ولبس الناس أحسن ملابسهم ، كأنهم في يوم عيد ، وصرخ الناس رجالهم ونساؤهم جاء رسول الله ، جاء رسول الله ، وجعل الإماء والجواري ينشدن ويغنين ويضربن بالدفوف ، والحبشة تلعب بحرابها فرحاً بقدومه ﷺ .

وجاء في الصَّحيحين ، وخرج الناس حين قدوم النبي وأبي بكر في طريق المدينة ، وعلى سطوح بيوتها ، والغلمان والخدم يقولون : الله أكبر ، جاء رسول الله ، الله أكبر . وجعلت النساء والصبيان والولائد يَقُلْنَ :

---

(١) المراد ضخامة الحجر وكانت تغالبه وتجذبه اليه من ثقله .
(٢) عيون الاثر ، ج : ٢ ، ص : ١٩٢ .

طلع البــدر علينـــا	من ثنيـــات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعـــا لله داع
أيهـا المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرّفت المدينة	مرحبـاً يا خير داع

ودخل النبي ﷺ المدينة والمسلمون يحيطون بـه مشاة وركباناً ، وقـد تقلّدوا سيوفهم ، وتحلّوا بأحسن ملابسهم ، وعـلا وجوههم الزهو والبشر والابتهاج بمقدم رسول الله ﷺ ، وقد بلغ من حرصهم على كرامة رسول الله وتعظيمه ، أن كانوا يتزاحمون على زمام ناقته ، حتى ينازع أحدهم صاحبه في الوصول إليه والتبرّك به[1] .

واعترضته القبائل لينزل عندها[2] ، فأتاه عتبان بن مالك ، وعباس بن عبادة في رجال من بني سالم بن عوف ، وقد أمسكوا بناقته ﷺ فقالوا : يا رسول الله، أقم عندنا في العَدَد والعُدّة والمنعة ، قال ﷺ : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت الناقة حتى إذا مرّت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة ، فقالوا وقد اعترضوا الناقة : يا رسول الله ، هَلُمّ إلينا إلى العدد والعدة والمنعة ، قال ﷺ : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا حلت ديار بني الحـارث بن الخزرج ، فقالوا : يارسول الله ، هَلُمّ إلينا إلى العدد والعدة والمنعة ، قال :

---

(١) صور من حياة الرسول ، ص : ٢٥٢/٢٥٣ .

(٢) وهذا ما كان من بريدة الأسلمي ايضا ، لما ركب في سبعين فارسا من أهل بيته من بني سهم يريد النبي لأخذ الجائزة من قريش . ولقي النبي ﷺ قبيل دخوله قباء ، فقال رسول الله ﷺ أنه لا يتطير وكان يتفاءل ـ وقال : يا أبا بكر برد أمرنا وصلح ، ثم قال : ممن انت ؟ قال : من أسلم . قال رسول الله ﷺ لأبي بكر : سلمنا . قال ؛ ممن ؟ قال : من بني سهم ، قال : خرج سهمك يا أبا بكر ، فقال بريدة : من انت ؟ قال : أنا محمد بن عبد الله رسول الله . قال بريدة : اشهد ان لا إله الا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله ، فاسلم بريدة واسلم من كان معه جميعا . فلما اصبح قال للنبي ﷺ : لا تدخل المدينة الا ومعك لواء ، فحل النبي ﷺ عمامته ثم شدها في رمح ، ثم مشى بين يديه ، فقال بريدة : يا نبي الله تنزل عليّ ، فقال النبي الكريم : إن ناقتي هذه مامورة . فقال بريدة : الحمد لله الذي اسلمت بنو سَهْم طائعين غير مكرهين . (الوفا باحوال المصطفى لابن الجوزي ، ج : ١ ، ص : ٢٤٧)

خلوا سبيلها فإنهـا مأمورة ، فخلوا سبيلهـا ، فانطلقت حتى إذا حلّت ديار بني عدي بن النجار ، فإذا بفتياتهم ونسائهم وأطفالهم ينشدون :

نحن جوارٍ من بني النجار وحبذا محمدٌ مِنْ جار[1]

واعترض الناقة سليط بن قيس وأبو سليط في رجال من بني عدي بن النجار، فقالوا : يا رسول الله هَلُمَّ إلى أخوالك ــ أم النبي من بني النجار ــ ، إلى العدد والعدة والمنعة ، قال ﷺ : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار ، بركت في مكان يجفف فيه التمر « مربد » ، وهو لغلامين يتيمين من بني النجار ، وهما في حجر معاذ بن عفراء ، وهما سهل وسهيل ابني عمرو ، فنزل عنها رسول الله ﷺ ، فاحتمل أبو أيوب الأنصاري ــ خالد بن زيد ــ رَحْلَهُ فوضعه في بيته[2] ، ونزل عليه رسول الله ﷺ وسأل عن المربد لمن هذا ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني رافع بن عمرو بن أبي عمرو ، وهما يتيمان لي ، وسأرضيهما منه ، فاتخذه النبي ﷺ مسجداً ، ونزل على أبي أيوب حتى بَنِي مَسْجِدَهُ ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغّب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، ودأبوا فيه فقال قائل من المسلمين :

هذا الحِمَال لا حِمَال خَيْبَرْ هـذا أبرُّ رَبَّنا وأطْهَرْ
اللهـم إن الخيرَ خيرُ الآخـرة فارحم الأنصـار والمُهَاجرة[3]

وارتجز المسلمون أيضاً :

لا عيش إلا عيش الآخـــرة اللّهم ارحم الأنصـار والمهاجرة

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢٥٢ . وكان ﷺ يجيبهن : « الله يعلم أني احبكن » .
(٢) دور المدينة المنورة تبلغ تسعا : كل دار محلة مستقلة بمساكنها ونخيلها وزرعها وأهلها وكل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم ، فهي كالقرى المتلاصقة .
(٣) الوفا بأحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢٥٤ .

فيقول رسول الله ﷺ : لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار .

وارتجز علي كرم الله وجهه[1] يومئذ :

لا يستوي من يعمـر المسـاجدا   يـدأب فيــه قائمـاً وقاعـدا

بناء مسجد رسول الله ﷺ

بُني مسجد رسول الله ﷺ ، سقفه من جريد ، وقبلته من اللّبن ، أو من الحجارة المنضودة بعضها على بعض ، وأعمدته من جذوع النخل ، إذا رفع أحدهم يده طال سقفه .

في بيت أبي أيوب الأنصاري

يقول أبو أيوب الأنصاري : لما نزل عَليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفْل ـ في الطابق الأرضي ـ وأنا وأم أيوب في العـُلو ـ في الطابق العلوي ـ فقلت له : يانبي الله بأبي أنت وأمي ، إني لأكره وأعَظّم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فاظهر أنت فكن في العـُلو ، وننزل عنه فنكون في السفل ، فقال : « يا أبا أيوب إنّ أرْفَقَ بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت » ، فالطابق الأرضي أيسر لزوار النبي لقربه من باب البيت ، والحادثة كلها تدل على الأدب الكامل ، الأدب الناتج عن الحب والاحترام لرسول الله ﷺ ، « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .

---

(١) اقام علي رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها ، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الامانات التي كانت عنده للناس ، حتى اذا فرغ منها خرج من مكة ماشيا يسير بالليل ويختفي بالنهار ، حتى تورمت قدماه ، فلما رآه ﷺ اعتنقه وبكي رحمة لما بقدميه من الورم ، ثم امرَّ عليهما يده الشريفة ، فشفيتا باذن الله ، فلم يشتك منهما بعد ذلك ، ونزل مع رسول الله ﷺ .

ويقول أبو أيوب الأنصاري ، فكان رسول الله ﷺ في أسفل البيت ، وكنا فوقه في المسكن ، ويقول : انكسر حُبّ ـ جرة ضخمة ـ لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ، نكشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه .

وقال : وكنا نضع له العَشَاء ، ثم نبعث إليه ، فإذا ردّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه ، نبتغي بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه ، وقد جعلنا له بصلاً وثوماً ، فردّه رسول الله ﷺ ، ولم أرَ ليده فيه أثراً ، قال أبو أيوب : فجئته فزعاً ، فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، رددت عشاءك ، ولم أرَ فيه موضع يدك ، وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وام أيوب موضع يدك ، نبتغي بذلك البركة ، قال ﷺ : إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي ، فأما أنتم فكلوه ، فأكلناه ، ولم نصنع له تلك الشجرة بعد[1].

أول خطبة لرسول الله ﷺ في المدينة

ومن أول خطب رسول الله ﷺ : حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فقدّموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلّغك ، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقٍ من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها ، الى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2] .

---

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٠٤ . والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٢٠١ .
(٢) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٠٥ .

ثم خطب ﷺ مرة أخرى فقال : إن الحمـد لله ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ان أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد أفلح من زيَّنه اللهُ في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ماسواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحـديث وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كـل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فانه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفي ، وقد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتي الناس الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابّوا بروح الله بينكم إن الله يغضب أن ينكس عهده ، والسلام عليكم .

الرسول ﷺ يوادع اليهود

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه اليهـود وعاهدهم ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم[1] :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رِبعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم — أسيرهم — بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم — الديّات — الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم

(١) وفي هذه الأثناء ارسل ﷺ زيد بن حارثة وابا رافع الى مكة واعطاهما خمسمائة درهم وبعيرين، فقدما بفاطمة وام كلثوم ابنتيه ، وسودة زوجته ، واسامة بن زيد ، وخرج عبد الله بن ابي بكر معهم بعيال أبي بكر فيهم عائشة .

الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة[2] ظلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك[3] مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط[4] مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثاً[5] ولا يؤويه ، وأنه من نصره

---

(١) المفرح : المثقل بالدين والكثير العيال .

(٢) الدسيعة : العظيمة .

(٣) لعله يقصد من دخلوا في الحلف من مشركي المدينة .

(٤) اعتبط : قتل بلا جناية .

(٥) المحدث : الذي يجني جناية .

أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مردّه إلى الله عز وجل ، والى محمد ﷺ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[1] إلا نفسه ، وأهل بيته ، وإن ليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الحارث مثل ماليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف ، وإن ليهود بني جشم مثل ماليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ماليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ماليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ، وإنه لا ينحجز على ثار جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك ، وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا[2] وان على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وإنه ماكان بيد أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مردّه الى الله عز وجل ، والى محمد رسول الله ﷺ ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا الى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وإن

---

(١) يوتغ : يهلك .

(٢) أي على الرضا به .

يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل مالأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .

وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وان الله على أصدق مافي هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ[1] .

وإن الناظر إلى هذا الحلف ليرى أن الرسول ﷺ[2] :

١ ـ استطاع أن يوحد بين جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وأن يجعل منهم أمة واحدة ألّف الإسلام بين قلوب أفرادها المتباينة .

٢ ـ أوجد التعاون والتضامن بين أفراد تلك الجماعة ، على أساس أن الأخوة في الدين متقدمة على غيرها من الصلات حتى على صلة القرابة .

٣ ـ شرط لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين في المصلحة العامة ، وفتح الطريق للراغبين في الإسلام ، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق[3] .

٤ ـ استطاع رسول الله ﷺ أن يجعل نفسه الشريفة في المدينة المنورة على رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة في النمو ، يتطلعون إليه زعيماً وقائداً ، ولا يعترفون بسلطان غير سلطانه ، دون إثارة أي شعور من القلق أو خوف التعدي على السلطة المعترف بها .

وهكذا باشر رسول الله ﷺ سلطة زمنية كالتي كان يمكن أن يباشرها أي زعيم آخر مستقل ، مع فارق واحد ، هو أن الرباط الديني بين المسلمين يقوم مقام الأسرة والدم .

---

(١) النص من ابن هشام ، جـ : ٢ ، ص : ١٠٦/١٠٧/١٠٨ .

(٢) تاريخ الاسلام ، جـ : ١ ، ص : ١٠٢/١٠٣ بتصرف .

(٣) كتب الرسول ﷺ هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية ، وإذ كان الاسلام ضعيفا ، وكان لليهود اذ ذاك نصيب في المغنم اذا قاتلوا مع المسلمين ، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب . (هامش ص : ١٠٨ ، من سيرة ابن هشام جـ : ١٠٨) .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه : « وأولوا الأرحام بعضهم أولي ببعض في كتاب الله » أي في الميراث ، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال سبحانه : « إنما المؤمنون إخوة » ، يعني في التواد وشمول الدعوة .

آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال : تآخوا في الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخي ، وحمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه وخارجة بن زهير أخو بلحارث بن الخزرج أخوين ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعِتبان ابن مالك أخو بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخوين ، وأبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح وسعد بن معاذ بن النعمان أخو بني عبد الأشهل أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع أخوين(1) ...

وقبل الحديث عن نتائج الهجرة ، نعرض الملاحظات التالية :

١ً ــ عندما خرج النبي ﷺ من مكة مهاجراً ، كان من المفروض أن يتجه شمالاً باتجاه المدينة حيث سبقه أصحابه ، وهذا ماتتوقعه قريش ، فلا يُعْقَل أن يهاجر الصحابة إلى المدينة ، ثم يهاجر رسول الله إلى جهة أخرى غيرها .

ولكن النبي ﷺ سار بعكس اتجاه المدينة !!

وهذا تمويه مابعده تمويه ، حتى الدليل سار بغير الطريق المألوف إلى المدينة بعد خروج الركب المبارك من غار ثور ، لقد سار منحدراً الى الجنوب

(١) راجع سيرة ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١١١/١١٠/١٠٩ للاطلاع على اسماء التآخي كلها .

أسفل مكة مولياً وجهه نحو اليمن ، ثم اتجه الى تهامة ومن بعدها على شواطىء البحر الأحمر نحو الشمال • والدليل ــ عبد الله بن أرقط ــ يرتجز ، ويعلن عن نفسه في السّير نوعاً من التضليل ، فالهارب لا يعلن عن نفسه •

كل هذا يدل على تحكيم العقل ، والعمل بالأسباب ، والباقي على مسبب الأسـباب •

٢ ــ دخل النبيُّ يثربَ فتنوّرت ، وصار اسمها منذ وصول النبي ﷺ (المدينة) أي مدينة رسول الله ، « المنوّرة »[1] ، برسول الله ، بعلمه ، بروحه ، بتزكيته ، ببركته فيها ، بحلول شخصه الكريم بها ••

لقد قالت المدينة عند قدوم رسول الله ﷺ :

طلع البــدر علينـا   من ثنيات الوداع ••

وهذا نشيد الأمة الإسلامية إلى الأبد ، ويا عرب •• طلع عليكم رسول الله بدراً مشرقاً في سماء مظلمة من العادات والخرافات •• فوجب الشكر عليكم •• فهو الذي سطر لكم فتوحاتكم ، وكتب لكم في تاريخكم مفاخركم ، وسـجل أجمل صفحات الانسانية بمبادىء تحمل الإخاء والمساواة والعدل والمحبّة •• فمتى نقول لروحه الشريفة وبعد طول اعراض : أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع ؟!؟ لتعودوا إلى عزّكم ومجدكم ووحدتكم ؟!؟•

٣ ــ مر معنا وصف مسجد رسول الله ﷺ ، مسجد متواضع ، سقفه من جريد النخل ، ومحرابه من لَبِنٍ وطين ، وأعمدته من جذوع النخل ، إذا رفع أحدهم يده طال سقفه ••

من هذا المسجد المتواضع البناء تخرج أبو بكر وعمر ، وخالد وسعد ،

(١) ذكر ياقوت الحموي تسعة وعشرين اسما لها ، منها : المدينة ، وطيبة « لطيب هوائها » المحببة ، والمحبوبة ، ويثرب ، والناجية ، والمباركة ، والعاصمة ، والشافية •••

المسجد النبوي في المدينة المنورة

وأبو عبيدة والنعمان ••• من هذا المسجد تخرج فاتحو العالم ، الذين نشروا الانسانية والإخاء حيثما حلّوا •

فليس المسجد في بنائه الضخم ، ولا في زخرفته الرائعة •• بل في رَجُلِهِ الذي يحيي القلوب ، ويبعث الهمم ، ويفجّر الطاقات ••

واليوم •• عمارة المسجد عمل طيب ، ولكن العمل على ايجاد العالِم المنتج فيه أمر مهم جداً ، فالعالم المنتج المربي أينما وُجِد ــ ولو بخيمة في زاوية مهملة ــ أوجد حوله التعليم والتربية والدعوة المعطاءة •• فما أحوج المسلمين اليوم لبناء العالِمِ مع بناء المسجد ، ليحقق البناء الهدف الأبعد الذي بني من أجله •



نتائج الهجرة

★ كانت الهجرة النبوية الحجر الاساس في ارساء قواعد الاسلام ، وانتصار دعوة التوحيد ، لذا كانت جديرة بان يتخذها الصحابة الكرام مبدا التاريخ لهذه الامة الاسلامية .

لقد كان من أعظم عبر ودروس الهجرة ، أنه مهما أوتي الحق وأصحاب الحقوق من قوة الحجج على صدق مبادئهم مما ينحصر في دائرة القوة المعنوية ، فإن ذلك وحده لا يكفي لأنتصار حقهم ، إذا ما تسلح خصومهم بالقوة المادية ، وحصلوا من أسبابها على ما يتفوقون به على أهل الرشاد .

هاجر النبي ﷺ الى المدينة ، وخطط لاستراتيجية عسكرية واقتصادية وسياسية ، ووطد العزم ، على أن يأخذ بكل ما يمكن من سببه ، وبكل ما يستطاع من عمل يسير به خطوة نحو قهر اعدائه وأعداء دعوته والانتصار عليهم ، وتثبيت دعائم الحق وأركان الدولة العربية الإسلامية .

ولم يكن أمراً عارضاً ولا مصادفة محضة ، ولا مجرد خاطر ، أن يختار رسول الله ﷺ المدينة المنورة داراً لهجرته ، وملجأ لدعوته ، ومقراً لدولته .

وحاشى أن تكون الهجرة فراراً من أعدائه ، أو خوفاً على نفسه وطلباً لشيء آخر غير نصر الله ..

وحقيقة إن الهجرة تمت سراً ، والسرية فيها لم تكن هروباً من المشركين ، ولكن زيادة في ضرب الغشاوة على أبصارهم « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ، واثباتاً لهم أن محمداً رسول مكلف برسالة من عند الله ، ولكن الحقد طمس قلوبهم ، فلم يروا النور الذي عم الجزيرة ، ولو فكّروا قليلاً لعلموا حقيقة ما يجهلون .

لقد كانت الهجرة الى المدينة لأهمية موقعها من الناحيتين العسكرية والاقتصادية ، ففي شمال الجزيرة العربية أكبر دولتين عظيمتين في العالم حينذاك، هما دولتا الفرس والروم ، وكان في مكة معقل الشرك ومركز المقاومة للإسلام على يد كفار قريش . فلو أن رسول الله ﷺ هاجر الى اليمن في جنوب الجزيرة أو الى شرقها ، لأعطى الفرصة لكل القوى المناوئة له أن تلتحم وأن تتماسك في جبهة متحدة فيتعرّض لمواجهتها ومن ورائه المحيط ، الذي لا يسمح لكفاحه ولجيوشه بحرية الحركة ، وفنية المناورة .

ولكنه في المدينة يستطيع أن يكون ذا موقع متوسط بين أعدائه في شمال الجزيرة ، وبين أعدائه في مكة ، فلا يسمح بلقاء بينهما ، كما أنه يستطيع من هذا الموقع نفسه محاصرة قريش اقتصادياً وتهديد تجارتها الى الشام ، التي كانت تمثل اكثر من سبعين في المائة من ثروتها[1] .

فمن نتائج الهجرة :

١ ـ تجمّع المسلمين في موطن واحد يمكّنهم من الدفاع عن أنفسهم ، والدعوة إلى دينهم والجهر بما لم يكونوا يستطيعون الجهر به ، فما كادت تمر سنة على حادث الهجرة حتى وجد المشركون أنفسهم أمام قوة إسلامية تقاتلهم على

(١) من مقال للدكتور محمد بيصار ، في الوعي ١٠٩ غرة المحرم ١٣٩٤ هـ .

كلمة الله ، ومقاومة التجبر والطاغوت ، وتنتصف منهم وهي قلة قليلة فينهزمون مثخنين وهم كثرة كثيرة .

إنها قوة التجمّع والتكتّل ، تساندها العقيدة الصادقة ، والإيمان الراسخ، فتفعل الأعاجيب وتصنع المعجزات ، ولو بقي المسلمون متفرّقين موزّعين مابين مكة والمدينة ، لما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً ، وإن كان الله قادراً على نصرة نبيه ، واعلاء كلمته ، ولكنه عز وجل ، لم يشرع الشرائع ، وينزل الاديان بما يخالف سننه في الكون وأحكامه في الخلق ، من تعاطي الأسباب ، واتخاذ الوسائل .

٢ - دبّت حركة جديدة في المجتمع الإسلامي في المدينة ، ترتب عليها نتائج ملموسة فهي التي دفعت بهم بعد ذلك إلى فتح البلاد واخضاعها لحكم الإسلام وعدالته وانسانيته .

فلم تمر على قيام الدعوة الاسلامية ثلاثة عقود حتى دخلت في طاعتها جميع الأقطار التي تكوّن امبراطوريتي فارس والروم ، ولم يكتمل القرن الأول حتى شمل نفوذها مابين الصين شرقاً واسبانية غرباً[1] .

لقد كانت الهجرة هي المنطلق لهذا العمل الجبار . فالهجرة هي المنطلق العملي ، والموقف الحاسم في تاريخ الإسلام ، وكل ما تحقق بعدها من منجزات ، وتتابع من نجاحات فهو محسوب عليها ، وراجع إليها ، كما أشرنا في المقدمة .

٣ - تفرّغ النبي لبناء الدولة « ففي مكة بنى الفرد ، وفي المدينة بنى الدولة » :

بنى ﷺ الفرد المسلم خلال ثلاث عشرة سنة في مكة ، وفي المدينة وخلال عشر سنوات بنى دولة مترامية الأطراف شملت الجزيرة العربية كلها ، ورسمت بدء الفتح على الجبهتين الفارسية والرومية .. فالملاحظ أن بناء الفرد استغرق

(١) الشيخ عبد الله كنون ، ص : ٣٦ ، الوعي .. العدد ١٢١ ، محرم المحرم ١٣٩٥ هـ .

زمناً أكبر من زمن بناء الدولة ، وهذا أمر طبيعي فبناء الفرد هو القاعدة الأساسية في تأسيس وبناء الدولة .

وفي المدينة المنوّرة أنشأ رسول الله ﷺ « دولة الإسلام » على أسس راسخة ، مع تهيئة الظروف لبقائها واستمرارها .

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة ، بناء المسجد، وهذا دليل جليّ واضح على أهمية المسجد في تاريخ الإسلام ، لقد كان « برلمان » الأمة ، ففيه عقدت الرايات المظفرة لليرموك والقادسية ونهاوند .. ومنه تخرّج قادة هذه الرايات المظفرة ، فهو مدرسة أخلاق وعلوم وتربية وبطولة .. وليس الفضل لجدرانه وسقفه .. الفضل لرجله الذي يصنع الرجال فيه ، يصنع أخلاقهم ويربيهم ويغرس في أرواحهم عشق البطولة ، والتفاني في الالتزام في المبدأ والاستشهاد في سبيله .

وفي المدينة المنورة أخذ رسول الله ﷺ يرتب شؤونه وشؤون أصحابه وينشىء المجتمع المثالي الفاضل على قواعد من الحب والإخاء والعدل والمساواة والتكافل والتعاون والتضحية والايثار ، وهي المبادىء التي وضعها الإسلام للمجتمع الصالح ليعيش الناس في كل زمان ومكان إخوة متعاونين يسودهم الوئام ، ويظلّهم الأمن والسلام .

وهذا المجتمع المثالي الفاضل كان في المدينة شعباً لدولة ذات سيادة متميّزة عن قريش وعن اليهود ، مجتمع مثالي كان الإيمان فيه فوق كل نسب ، وفوق كل عصبية أو قبلية ، مجتمع متميّز نسب الإسلام فيه فوق كل نسب .

٤ ـ حرية الدعوة الى الله « ضمن مجتمع جديد في كل شيء » :

هاجر المسلمون من مكة بسبب اشتداد العذاب عليهم ، وبسبب كبرياء قريش وتعاليها .. وفي دار الهجرة بدأ عهد الأمن والاستقرار ، فأخذ النبي ﷺ يضع قواعد المجتمع الصالح . انتهى عهد الاضطراب والخوف ليبدأ عهد

الاستقرار والأمن في المدينة ، وبذلك بدأت حرية الدعوة إلى الله بعد الخلاص من عذاب قريش واذاها . ولما حاولت الوقوف في وجهها كانت القوة الرادعة ، لقد وقف النبي والمسلمون في وجه الكفر بالقوة بعد أن عجز الدليل والبرهان .

لقد أراد ﷺ حياة فاضلة كريمة مثاليّة أساسها التآخي ، ومظهرها التراحم، وغايتها السلام ، وعلى هذا نظم الصلات التي تحيط بالمسلم من جميع جوانبه ، وهي صلة المسلم بالله ، وصلة المسلم بالمسلم ، وصلة المسلم بغير المسلم .

١ ــ وصلة المسلم بالله أساس العبودية الخالصة مع وحدانية مطلقة .

٢ ــ وصلة المسلم بالمسلم أساسها الأخوة بالله « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » ، على هذا الأساس عرض سعد بن الربيع الأنصاري على عبد الرحمن بن عوف « المهاجر » أن يشاطره ماله ، وأن يطلّق له إحدى زوجتيه ليتزوجها ، فضرب الأنصار بذلك مثلاً في الأخوة لا نظير له في تاريخ الانسانية كلها .

ولم يستغل المهاجرون هذه العاطفة الكريمة في إخوانهم الأنصار ليعيشوا كليلين عليهم ، بل أخذوا يسعون ويكدون في سبيل العيش ، فاشتغل بعضهم بالتجارة في أسواق المدينة[1] ، واشتغل بعضهم بالزراعة في أرض الأنصار .

لقد كانت هذه الأخوة شيئاً جديداً على المجتمع العربي الذي قطّعت أوصاله عصبية القبيلة ، وفكّكت روابطه قرابة الدم ، بل كانت نوعاً فريداً في تاريخ الأخوة الإنسانية ، قضى على كل تعصّب للجنس واللّون والقرابة والوطن .

---

(١) جاء في (أسد الغابة) ج : ٢ ، ص : ٣٤٩ ، و ج : ٣ ، ص : ٣٨٠ في ترجمة سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف ، ان سعدا قال لعبد الرحمن : ان لي مالا فهو بيني وبينك شطران ، ولي امراتان فانظر أيتهما احببت أخالعها ، فاذا حلت فتزوجها ، فقال عبد الرحمن : لا حاجة لي في اهلك ومالك ، بارك الله في اهلك ومالك دلوني على السوق .

٣ ـ وصلة المسلم بغير المسلم أساسها الأخوة الانسانية[1] « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » .

٥ ـ أصبح المسلمون منافساً جديداً لليهود ، فبدأ كيدهم وحقدهم العميق على الإسلام والمسلمين ، وكانوا أولى الناس بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، مصداقاً لما بين أيديهم من الكتاب ، موافقاً لكل ما يعرفون من صفة هذا النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة . فغلب الحسد والحقد على نفوسهم ، فعزّ عليهم أن يكون هذا النبي من العرب لا من اليهود ، وأن ينازعهم المكانة الدينية أحدٌ غيرهم ، أو تشاركهم أمّةٌ أخرى في هذه الميزّة التي يعتقدونها أنهم أبناء الله وأحباؤه وشعبه المختـار في الأرض ، وأن الرسل والأنبياء لا يكونون إلا منهم[2] .

ومع ذلك وقف النبي ﷺ منهم موقف رفق ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، وتغاضى عن كثير من سيئاتهم ، وعاتبهم في هوادة .. ولكن نيران الحسد كانت تغلي في قلوبهم ، فكان هدفهم وهدف المشركين واحداً في القضاء على دعـوة الإسلام . فكانت لقاءات مسلّحة معهم فيما بعد بسبب تآمرهم وتطاولهم ، انتهت بإجلائهم عن الجزيرة العربية .

٦ ـ ونزلت في المدينة آيات التشريع والمعاملات ... بعد أن كانت في مكة آيات تحض على الإيمان والصبر .

٧ ـ وبدأت تتجلى عالمية الدعوة الإسلامية في المدينة بوضوح أكبـر « بُعِثت إلى الأحمر والأسود » ، «أرسلت إلى الناس كافة وبي خُتم النبيون»، « أنا رسول من أدركت حياً ومن يولد بعدي » .

٨ ـ وأصبحت تجارة قريش في خطر ، في ذهابها وإيابها إلى الشام . ولما

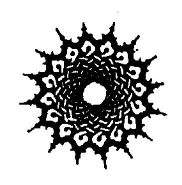
---

(١) عن « صور من حياة الرسول » بتصرف ، صفحة : ٢٦٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٧٣ .

فكرت قريش في تغيير طريق تجارتها الى نجد ، وضع رسول الله ﷺ السرايا على طريق نجد ليحقق الحصار الاقتصادي على قريش .

٩ً ــ وظهر المنافقون في المدينة المنورة بزعامة عبد الله بن أبيّ بن سلول الذي كان مرشحاً للزعامة قبل الهجرة ، ولقوة المسلمين لم يستطع المنافقون المجاهرة بكفرهم ، فاتخذوا موقف النفاق فأظهروا إيماناً وابطنوا كفراً .

١٠ً ــ وضاعفت قريش من جهودها في محاربة الدعوة الإسلامة ، فأخذت تحرّض القبائل المحيطة بالمدينة على المسلمين ، وتؤلّب عليهم أعداء الإسلام في داخلها ، فكان من الطبيعي ايجــاد قوة تحمي الدعوة من قريش والمشركين في المدينة واليهود من حولها ، ومن المنافقين الذين اتخذوا مسجداً ضراراً .. فكان القتال المسلّح الذي ثبّت أركان الدولة الإسلامية الناشئة بعد انتصار بدر .



خاتمة

«يا مسلمون» إلى هنا ولا أبعد

هجرة إلى الله ورسوله

وهكذا عرضنا أحداث الهجرة ، وأهمّ نتائجها ..

الهجرة التي حققت أهدافها كلها ، وآتت أكلها وثمارها المرجوّة .

لقد كان بنـاء المسجد أول عمل قام به رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أهمية المسجد في تاريخ الإسلام ، لقد كان « برلمان » الأمة ، ففيه عقدت الرايات المظفّرة للفتح شرقاً وغرباً ، ومنه تخرّج قادة هذه الرايات الخفّاقة .

المسجد يا مسلمون كمـا أراده رسول الله ﷺ ، غدا رمزاً لمـا يتسم به الإسلام من شمول وتكامل ، فقد أصبح مركزاً روحياً لممارسة الشعائر وأداء العبادات .. ومدرسة علمية وتشريعية يجتمع في ساحتها أصحاب الرسول الأعظم ﷺ ، وتدار في باحاتها الندوات، وتلقى من على منبرها المتواضع التعاليم والكلمات،

ومؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيهـا النظام والمساواة والمودّة والتكافل والرحمة ..

المسجد .. الخلية الأولى للبناء الاجتماعي للأسرة والجماعة ، بوصفه أداة لصهر المؤمنين في الإسلام في وحدة فكرية ، من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء ، وإقامة المناسبات المختلفة .. فلم يكن المسجد معبداً ، أو مقرّاً للصـلاة وحدها ، بل كان شـأنه شأن الإسـلام نفسه متكاملاً في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع .

يا عرب ، يا مسلمون : المدينة أضحت بعـد الهجرة مُنَوَّرة ، فَبِمَ تنوّرت ؟

لقد تنوّرت بأنوار رسول الله ﷺ ، وبعلمه وبروحه وبتزكيته وببركته وبتعاليمه .

ياعرب ، ويامسلمون : زوجات النبي الكريم أمّهاتكم ، فهو بالتالي أبوكم، فإلى متى الزهد فيه ، والابتعاد عنه .

ياعرب ، ويامسلمون : « إلى هنا ولا أبعد » ، إنه المصطفى ، بدركم الذي لا يغيب ، ونجم سعدكم الذي لا يأفل ، ولن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما هبط عليها من سمائها ، وبما نبع فيها من أرضها .

ياعرب ، ويامسلمون : اجعلوا نشيدكم « طلع البدر علينا » ، إن أردتم عودة إلى عزتكم ومجدكم ، واجعلوا نشيدكم « جئت بالأمر المطاع » ، إن أردتم عودة الى وحدتكم وتضامنكم ..

ياعرب ، ويامسلمون : محمد بن عبد الله وحدكم ولم يفرقكم ، وجمع شملكم ولم يشتتكم ، ووسّعْ رقعة أخوتكم ولم يقلصها .

محمد بن عبد الله جعل في أمتكم المفككة التقدم بدل التخلّف ، والعز

بدل الذل ، والنصر والغلبة بدل القهر والتبعيّة • محمد بن عبد الله ــ النبي العربي ــ جعل النازحين اللاجئين في دولته اليهود الذين مكروا بدين الله ، وألّبوا عليه القبائل • وعندما غابت تعاليمه ، النازحون اللاجئون هم عربٌ أخرجهم اليهــود •

لقد كانت الهجرة قبل فتح مكة فرضاً على كل مسلم : « إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا[1] •• »

كانت هجرة الى الله ورسوله ، فمع تجميع قوى المسلمين في المدينة ، كانت الهجــرة الى الله ، أي الى مجالس العلم والتربيــة والأخلاق والتزكيــة قرب رسول الله •

فيامسلمون هجرة الى الله ورسوله ، وعن ابن عباس قال ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، فقال الرجل : فما الهجرة ، قال النبي الكريم : تهجر السوء ، قال الرجل : فأي الهجرة أفضل ، قال رسول الله ﷺ : الجهاد » •

فيا عرب ، ويا مسلمون : « لا هجــرة بعــد الفتح » ، فهاجروا إلى الله ورسوله ، واهجروا السيئات، التي من أعظمها البعد عن الإسلام، ونبيّ الإسلام•

يا عرب ، ويا مسلمون : اجعلوا من إسلامكم مشاهدات في أعمال ، لاأقوال ونظريات ، اجعلوه إيماناً يملأ القلوب ، وحشوة نورانية للروح ، ليراه الآخرون ثماراً في الأخلاق وفي السلوك ، وجمالاً لكل ذي عينين ، اجعلوه إسلام فضائل وأخلاق في نفوس مطمئنة بالله ، مزكاة محمية بعناية الله ، قلوباً متصلة بالله حتى تصبح بحراً زاخراً بالعلم والحكمة والمعرفة •

نبيكم يا عرب ، والله نسيج وحده ، لقد أراد المشركون الوثنيون واليهود

---

(١) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ٧٢ •

أن يطبقوا على الرسالة والنبوّة ، كما أطبقوا على الأنبياء من قبل ، ولكن هذا محمد بن عبد الله ، فلئن نجا عيسى عليه السلام بمعجزة ، ونجا ابراهيم بمعجزة ، وموسى بمعجزة •• فإن محمداً بن عبد الله أخذ ثأر الأنبياء قبله من أعداء النبوة، وقتلهم ، وحطم كفرهم وعنادهم ، وحقّق جيشاً ودولة عالمية إنسانية فاضلة ، متآخياً فيها الأسود مع الأبيض ، والعربي مع الأعجمي ••

دينه •• دين الحياة ، ودين المجد ، ودين النصر ، ودين العظمة ، وضالة الأمم •• إنه الإسلام •• الذي يجمع ولا يفرّق ، الذي يجعل العلوم بكل صنوفها فرضاً ، الإسلام الذي ينهض بالأمة في كل ميادينها ، اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وفكرياً وتربوياً وخلقياً ••

واليوم في ذكرى الهجرة ، وفي مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، أين هجرتكم يا مسلمون ؟ هذه أعمال النبي ، فأين أعمالكم ؟ هذه تضحيته ﷺ ، وتضحية المهاجرين والأنصار ، فأين تضحيتكم ؟ هذا صمود الرعيل الأول ، فأين صمودكم ؟ وهذا تاريخهم الذي صنعوه ، وليس عندنا ما نرفع به رأسنا إلا به ، فأعمالهم كانت للأجيال من بعدهم فخراً ومجداً وعيداً وذكريات مشرّفة ، فأين تاريخكم الحاضر الذي تفخرون به ؟

أين هجرتنا ؟!؟ وصاحب ذكرى الهجرة يقول « لا هجرة بعد الفتح » ، أي لا هجرة جسدية من مكة إلى المدينة ، لأن مكة صارت دار إسلام ، ولكن الهجرة مستمرة لا من أرضٍ الى أرض ، بل هجرة من الجهل الى العلم ، وهجرة من الغفلة إلى الذكر ، وهجرة من البعد إلى الصلة به سبحانه •

هجرة من البخل إلى البذل والعطاء ، هجرة من اللغو إلى الجد والهمة والعزيمة ، هجرة من الرذائل الى الفضائل ، ومن الشر الى الخير ، ومن البطالة الى العمل •

هاجروا وذكر الله هجرتهم ، والهجرة ثمرة وفرع من شُعَب إيمانهم ،

والإسلام بضع وسبعون شعبة ، فإن وُجِد الأصل ووجدت الشجرة ، وجدت الفروع ، ووجدت الثمار ، ومن ثمار الإيمان والإسلام في المؤمن الهجرة ، فإذا دعاك الله إلى عمل فهذه هجرة « فالمهاجر من هجر مانهى الله عنه » .

والمؤمن الحق اليوم : « مهاجر أنصاري » ، مهاجر إلى الله في كل أعماله ، وأنصاري في إخوته مع المسلمين .

فيا عرب ، ويا مسلمون : إلى هجرة روحية قلبية الى الله ، وهجرة فكرية إليه ، هجرة أعمال وأخلاق والتزام .

لقد كانت الهجرة ثمرة من ثمرات تربية رسول الله ، استطاع أن يقنعهم أن يخرجوا عن كل شيء في سبيل الله ، فهل عندك أيها المسلم قناعة أن تبذل مما عندك في سبيل الله ؟

فيا عرب ويا مسلمون .. اهجروا كل ما سوى الله ورسوله .

واهجروا كل ما سوى دينكم الذي ارتضاه الله لكم .. فأنتم مهيؤون اليوم للقيام بالدور نفسه الذي قام به المهاجرون والأنصار ، بعودتكم إلى ذاتيتكم ، ومصدر وحدتكم وعقيدتكم . يقول عزّ وجل :

« فاستجابَ لهم ربُّهم أني لا أُضيعُ عملَ عاملٍ منكم مِن ذكرٍ أو أنثى، بعضُكم مِنْ بعض ، فالذين هاجَروا وأُخرجوا مِنْ ديارِهم وأُوذوا فيسبيلي وقاتَلوا وقُتِلوا لأُكفِّرَنَّ عنهم سيئاتِهم ولأُدخِلَنَّهم جناتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ ثواباً مِنْ عندِ اللهِ ، واللهُ عنده حُسْنُ الثّواب »[1] .

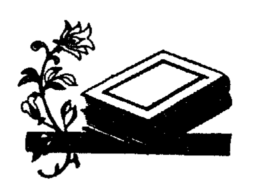
« إنَّ الذين آمنوا والذين هاجَروا وجاهَدوا في سبيلِ اللهِ أولئك يَرجُون رحمةَ اللهِ ، واللهُ غفورٌ رحيم »[2] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ١٩٥ .
(٢) سورة البقرة ، الآية الكريمة : ٢١٨ .

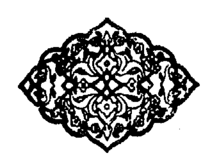
« والذين هاجروا في الله مِنْ بَعدِ ما ظُلِمُوا لنبوِّئنَّهم في الدنيا حسنةً، ولأجرُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون، الذين صبروا وعلى ربِّهم يتوكلون »[1].

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيلِ اللهِ بأموالِهم وأنفسِهم أعظمُ درجةً عند الله ، وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورِضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم »[2] .



(١) سورة النحل ، الآية الكريمة : ٤١ و ٤٢ .
(٢) سورة التوبة ، الآية الكريمة : ٢٠ و ٢١ .

المحتوى



للمؤلف

صدر من سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الاسلام » الاجزاء التالية :

١ ــ القادسية	بقيادة سعد بن أبي وقاص .
٢ ــ اليرموك	بقيادة خالد بن الوليد .
٣ ــ نهاوند	بقيادة النعمان بن مقرّن المزني .
٤ ــ ذات الصواري	بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
٥ ــ فتح الأندلس	بقيادة طارق بن زياد .
٦ ــ بلاط الشهداء	بقيادة عبد الرحمن الغافقي .
٧ ــ فتح صقلية	بقيادة أسد بن الفرات .
٨ ــ الزلاقة	بقيادة يوسف بن تاشفين .
٩ ــ الأرك	بقيادة المنصور يعقوب الموحّدي .
١٠ــ العِقاب	بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحّدي .
١١ــ مصرع غرناطة	« أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر » .

* * *

١٢ ــ الإسلام فوق الاتهام — الطبعة الرابعة .

« ترجم الى اللغة الفارسية » .

١٣ ــ من ضيّع القرآن ؟ — الطبعة الثانية .

١٤ ــ الإنسان بين العلم والدين — الطبعة الثالثة .

١٥ ــ هارون الرشيد — الطبعة الثانية .

١٦ ــ غريزة .. أمْ تقدير إلهي ؟ — الطبعة الثالثة .

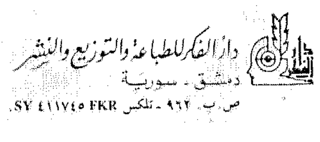
١٧ ــ آراء يهدمها الإسلام — الطبعة الأولى .

١٨ ــ الإسلام وحركات التحرر العربية — الطبعة الثانية .

١٩ ــ عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي — الطبعة الأولى .

٢٠ ــ الهجرة « حدث غير مجرى التاريخ » — الطبعة الأولى .

« تطلب من دار الفكر بدمشق »



دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر
دمشق - سورية
ص.ب ٩٦٢ - تلكس FKR ٤١١٧٤٥ SY